

دار العودة - بيروت

اهداءات ٢٠٠٣

الدكتورة /صفاء الحمامى

الإسكندرية



مصطفى محمود

الغلاف للفنان بهجت عثمان

اللوحات الداخلية بريشة الفنان حسن فؤاد والفنان رجائي

الموتيفات للفنان صموئيل



أنا الدكتور م . داود دكتوراه فى جراحة المخ والأعصاب من جامعة برلين .. أخطو الآن نحو الستين من عمرى وان كانت المرآة التى تطل على من ركن الدولاب تقول غير هذا .

تجاعيد ... وعظام بارزة .. وأنامل معروقة .. وبشرة مغضنة .. وخد هضيم .. وشعر أشيب .. وأجفان وارمة .. وعينان حمراوان تطل منهما نظرة مرتاعة . تلك النظرة المرتاعة دائما .. كأنى كهل فى الثمانين يخطو خطوته الأخيرة نحو النهاية .

لا .. بل هو ذلك السر ..

ذلك السر الرهيب الذى ظللت أحمله بين جنبى طيلة هـــذه السنوات وأحمل معه تلك المسئولية الجسيمة ..

والى متى .. ؟!

لقد جاء الوقت .

نعم .. جاء الوقت لأتكلم وأسطر فى هذه الأوراق خفايا هذه السنوات الرهيبة التى عشتها .. وأكشف ذلك السر .

وليعذرنى من تقع فى يده هذه المذكرات اذا وقع على اصطلاح لم يفهمه .. وليغفر لى السرعة التى أكتب بها تلك الأوراق فما بقى فى العمر فسحة ..

وها أنذا أكتب الآن وأنا ألهث وأشعر بدبيب الموت يدب مع كل نبضة .. لكأنما الفناء سوف يلحقنى قبل أن أفرغ من كشف هذا السر الرهيب .. ولو حدث ذلك .. يا الهى .. من يدرى ؟ .. وبما عاشت الانسانية أجيالا أخرى من الظلمات قبل أن تتجلى تلك الحقيقة الثمينة فلا يكشفها أحد .. وتظل الحياة سرا مستغلقا ملغزا الى الأبد .

ودعونى أبدا .. فالقصة طويلة .

ولأبدأ من البداية ..

من عصر ذلك اليوم البعيد من ست سنوات .

* * *

فى شتاء عام ١٩٥٨ فى يوم أحد غائم رطب فى غرفة الكشف بالعيادة وقد شربت قهوتى كالمعتاد حينما طرق الباب أول زائر .. شاب نحيل صفراوى النظرات ذو وجه ممعود .

كدت أقول له من اللمحة الأولى الشكوى التى يشكو بها .. وأصف له الدواء دون حاجة الى فحص ..

كان وجهه صفحة مكشوفة معروفة تنبىء عن مصران غليظ ومرارة وسوء هضم .. ذلك الثلاثى المألوف فى بلادنا .

ولكنه لم يشك بأى شكوى من هذه الشكاوى وانما قدم لى روشتة عليها تحويل من طبيب معروف .. وعلى الروشتة قرأت خمس كلمات :

اشتباه ورم فى المخ .. للفحص .. والعلاج .

ورم فى المخ ؟ !!

ما الذى جعل الطبيب يفكر فى احتمال ورم بالمخ .

وسألته عن شكواه فقال انه يعانى من صداع مزمن وزغللة فى العين .. أعراض عادية يمكن أن توجد فى ألف مرض ومرض .

سوء الهضم يمكن أن يؤدى الى صداع .. الامساك المتكرر.. فقر الدم .. الجيوب الأنفية .. الأضراس التالفة .. ضغط الدم .. عدم استخدام النظارة فى القراءة .. ادمان الخمر .. القلق النفسى .. كل هذه أسباب يمكن أن تؤدى الى صداع وزغللة . ما الذى جعل الطبيب يفكر فى ورم بالمخ .

هذا تشخيص خطير لا يصح فيه الأخذ بالشبهات .

ولم يكن أمامى وقت لأتساءل وأتأمل .

ومضيت فى الفحوص المألوفة .. كشف دقيق لقاع العين .. صورة أشعة للدماغ .. قياس ضغط للسائل الشوكى .. واجراء رسم كهربائى للمخ ..

ومن خلال منظار قاع العين مضيت أتأمل العصب البصرى .. والشبكية ..

وكانت النظرة الأولى مؤكدة لظنى .. لم تكن هناك أى علامة من علامات ورم المخ أو ارتفاع ضغط السائل السحائى .. كان كل شىء يبدو طبيعيا .

وتشجع المريض وهو يرى الابتسامة على وجهى وسألنى :

— كيف الحال يا دكتور .

— خير .. كل خير .. أنا لا أرى أمامى أى شىء .

— متشكر .

وسكت لحظة ثم عاد يقول فى اضطراب :

— ولكن الدكتور كان عنده اشتباه ..

— أى اشتباه .. أنا لا أرى أمامى أى مرض مريب .. وعلى أى حال سأكشف عليك بالأشعة لتطمئن .

وبينما كانت الممرضة تجهز غرفة الأشعة .. كنت أكتب ملاحظاتى كالمعتاد فى ورقة الكشف .. وكان يجاوب على أسئلتى وقد زال التوتر من نبراته .. وتراخت عضلات وجهه المنقبضة .

— اسمى راغب دميان مهندس كهربا ١٥ شارع ابن الوليد بحدائق القبة أعمل حاليا فى وحدة أبحاث الراديوم فى قصر العينى.

— متزوج ؟

فأجاب بابتسامة وهو ينظر الى دبلة الخطوبة فى يده اليسرى :

— فى الطريق .

— منذ متى وهذه النوبات من الصداع تعاودك ؟

— منذ شهرين .

— كيف بدأت أول نوبة ؟

— كان ذلك فى ليلة أحد .. وما زلت أذكر اليوم والساعة وكأنها حدثت الآن .. كنت فى طريق عودتى من السينما والليل شديد الظلام والقمر فى خسوف كلى والأولاد يخبطون على الصفيح .. هذه العقائد الخرافية الشائعة فى الأحياء البلدى .. وأنا أتلفت حولى فى شرود أفكر فى الفيلم .. وأنظر حولى فى البيوت والمآذن والحقول فيخيل الى أنها مرسومة بالفحم وأنها غير حقيقية .. وأرى الدنيا كلها بعين حالمة وسنانة فيخيل الى أنها وهم .. خيال .. وأن..

وكنت أكتب ما يقوله باختصار حينما سمعته يسكت فجأة ..

ورفعت وجهى لأراه يميل فى ضعف وهو يغطى عينيه .

وبعد لحظات كان فى غيبوبة تامة .. يتنفس بحشرجة ويتهته .. وقد اتسعت حدقتاه كأنما يعانى فزعا هائلا لا حد له وتشنجت أطرافه وتصلبت كأعواد من حديد ..

وبينما كنت أقوم باسعافه .. لاحظت أن أطرافه تسترخى شيئا فشيئا .. وأن عيناه تنغلقان فى هدوء .. وأن فمه يتحرك لتخرج منه كلمات واضحة .. لم تكن كلمات عربية .. ولكن كلمات أجنبية .

ولم أجد صعوبة فى اكتشاف أنها لغة أسبانية .

كان يتحدث فى غيبوبته بلغة أسبانية سليمة .. وكان يتكلم عن صديق له اسمه دون سباستيان كاميللو مصارع فى حلبة ثيران .. وكان يبـدو أنه على وشك البكاء .. وظلت نبراته تخفت حتى أصبحت همسا وفحيحا مكتوما .. ثم سكت .. وتخضل وجهه بالدموع .

وكنت أنظر اليه فى ذهول .. وقد شلت غرابة المفاجأة ذهنى وبعد دقائق رأيته يفتح عينيه .. وينظر الى كأنه عائد من عالم آخر وتدريجيا بدأت تظهر فى نظرته اشراقة الادراك .

ثم رأيته يمسك بيدى فى رقة معتذرا .. وفى صوته رجفة

— لقد رأيت بنفسك .. أنها النوبة ..

والتقط أنفاسه ثم عاد يقول بصوت باك :

— أنها تفاجئني فى أى مكان .. بدون انذار .

وراح يفرك يديه فى استسلام .

وسألته :

— هل أخذت شهادتك من أسبانيا ؟

ونظر الى فى دهشة لسؤالى المفاجىء :

— لا .. أخذتهـا من مصر .. أنا لم يسـبق لى أن سافرت خارج القاهرة ..

وقلت مندهشا :

— ألم تتعلم الأسبانية ؟

وأجاب فى دهشة أكثر من دهشتى :

— أنا لا أعرف حرفا واحدا فى الأسبانية .

ثم أردف فى ارتياب :

— لماذا تسأل هذا السؤال ؟

— لأنك طوال النوبة كنت تتكلم الأسبانية .

وبدا عليه أنه لا يفهم ما أقوله .. ونظر الى مذهولا .

كان من الواضح أنه لا يذكر حرفا واحدا ممـا قاله أثنـاء

غيبوبته وجلست أدون ملاحظاتي عن هذه النوبة العصبية الغريبة .. وقد تحرك في فضول لا حد له ..

لم يكن ذلك الذى أراه أمامى .. حالة صداع .. ولا حالة ورم بالمخ .. وانما حالة غامضة لا عهد لى بها .

فى ذلك اليوم لم أستطع أن أكشف على أى مريض آخر .

كان ذهنى قد توقف عند تلك الحالة الغريبة .

وكانت أفكارى تدور وتدور ثم تعود لتتركز عند راغب دميان

وفى البيت لم أستطع أن آكل لقمتى دون أن أفكر .

وحينما ألقيت بجسمى آخر الليل على الفراش ظللت مفتوح العينين أفكر وأعيد النظر فى هذه الحالة الغريبة .

هل يمكن ؟

هل يمكن أن يجيد الانسان لغة لم يتعلمها .

واذا لم يكن هو الذى يتكلم ..

فمن كان يتكلم ..

وكيف يوجد اثنان فى جسد واحد .

هل هى الخرافة التى يسمونها المس الروحى !!

غير معقول ..

هذه تخاريف لا يمكن أن تقال فى عصر الذرة .

لم آكن أعتقد فى شىء اسمه أرواح ..

فأنا بحكم دراستى أعلم أن كل شىء حقيقى فى الدنيا يجب أن يكون قابلا للادراك بالحواس .. أما ما لا يرى ولا يسمع ولا يشم ولا يحس ولا يعقل فهو ببساطة غير موجود .

الحياة نظام .. وقوانين .. ومقدمات .. ونتائج .. وأسباب .. ومسببات .. لا مكان للتخمين والحدس .

لا مكان للتخريف .. وافتراض أشباح لا وجود لها ..

نحن نعيش فى عالم منطقى معقول .. وما يحدث حولنا يمكن رصده فى احصاءات ومعادلات ويمكن دراسته وملاحظته والتنبؤ به .

لا مكان لهذه التخاريف .

كنت أرفض بشدة هذا التدجيل ..

ولكنى فى الواقع . فى أعماق نفسى . لم آكن مستريحا ..

كنت أشعر أن ما قلته ليس هو كل الحقيقة ..

نعم ..

فهناك أشياء كثيرة غير مفهومة ..

هذا الراديو الترانزيستور الصغير فى حضنى الذى لا يزيد



حجمه على علبة كبريت يلتقط من الهواء كلمات .. هذه الكلمات كانت تسبح أمواجا فى الفضاء .. ومن قبل أن أفتح هذا الراديو .. كانت هذه الأمواج تذرع الفضاء حولى .. لا ترى .. ولا تسمع ولا تحس .. ولا تلمس .. ومن قبل اختراع هذه العلبة الصغيرة السحرية .. كان الفضاء مشحونا بهذه الموجات اللانهائية دون أن تدرك أو ترى . . فهل معنى هـذا أنها كانت دجلا وهـذيانا لا وجود له .

نحن فى العادة لا نعترف الا بما نراه ونلمسه .. وهذا غرور . فما أقل ما نرى وما أقل ما ندرك فى هذه الدنيا ..

ها هنا بين يدى فى هذا الراديو الصغير بنقلة يسيرة من المؤشر أسمع اشارات تلغرافية واضحة من محطات مختلفة من العالم . . لو كانت عندى شفرتها لعرفت ماذا تقول .. ولكنى بدون هـذه المعرفة لا تبدو هذه الاذاعات الا مجرد دقات وشوشرة .. وبالمثل هذا الوش الذى أسمعه حينما أحرك مؤشر الراديو مرة أخرى قد لا يكون وشا .. قد يكون لغة أخرى لا أعرف شفرتها .

كانت فكرة عابرة .

ولكنها بدت لى مخيفة .

فقد بدأت الرياح تزمجر فى الخارج والجو يرعد .

وساءلت نفسى . هل هى ضجة .. مجرد ضجة .. أم أنها هى الأخرى لغة .. واشارات مثل اشارات مورس لها شفرتهاومفتاحها.

نعم .. من يدرى .. ربما كانت لغة كونية ومفردات وكلمات .. كل ما فى الأمر أننا نجهل شفرتها .

وانفتحت ضلفة النافذة فجأة .. ومرقت ريح باردة .. فانتفضت فى مكانى .. وجذبت الغطاء فى رعب وأنا أنظر الى البرق الذى شق ظلمة السماء كسيف لامع .

نعم ..

كل هذه الأحداث يمكن أن تكون لغة الهية لا نعرف شفرتها..

خلف هذه الظلمات المحجبة .. من يدرى .. كم من الأمواج والاشعاعات مما نعلم .. ومما لا نعلم ..

وخلف هذا الصمت الأبدى .. وراء هذه المتاهات الشاسعة من الفضاء .. كم من الأصوات هناك مما لا نسمع .. ومن الأرواح .. ومن الأطياف .

وانتابنى ذعر ..

وأخذت أتلصص بعينى من تحت الغطاء .. وقد بدت لى كل قطعة أثاث فى الغرفة السابحة فى الظلام وكأنها كيان له لغته وله روحه .

وتسلل الذعر الى أوصالى فجمدها وشلها .

واستجمعت كل شجاعتى .. ومر وقت خلته ساعات وأنا أتسلل بأصابعى الى زر النور لأضغط عليه .

وأضاءت الغرفة بنـــور باهر . . وتصبب العرق باردا على جسدى .. وتنفست الصعداء .. وأنا أتلفت حولى فى قطع الأثاث المألوفة .

كانت كل قطعة فى مكانها .. جامدة ميتة كما عهدتها.. بلا روح.

كنت أتخيل أشياء لا وجود لها .

يا رب ..

ومسحت عرقى وشعرت بالسعادة وأنا أنظر الى غرفتى المألوفة وقد استقرت كل قطعة أثاث فيها خرساء لا تنطق .

كنت أشعر بالسعادة لأنى أنا الحى الوحيد فى هذا الموات .

أنا الذى أهدد هذا الوجود .. وهو لا يملك أن يهددنى .

أستطيع أن أحرك أى قطعة أثاث من مكانها وألقيها فى الشارع .

ها هنا بيتى .. وغرفتى .. وأشيائى .. كلها ملكى .

وشعرت أنى أسترد حريتى ازاء هذه المفردات الجامدة المتناثرة وعاودتنى الثقة بنفسى ..

وابتسمت ..

ثم ضحكت ..

ثم قهقهت فى عصبية على تلك الأفكار الهستيرية التى راودتنى.

كانت سرحة مضحكة فعلا .

كيف وصلت بى الفبركة الى هذا المدى ..

ان الظلام والسكون والوحدة .. والأعصاب المتوترة .. يمكن أن تفعل بعقولنا الأفاعيل .

ولكن ..

ولـكنى كنت ما زلت أفكر . وقد تذكرت أحداث اليـوم العصيب كله .

كانت القضية كلها ما زالت هناك بلا حل . ذلك المريض الغريب .. راغب دميان ..

كان لا بد من تفسير ..

لم يكن فى امكانى أن أنام دون أن أعثر على تفسير ..

وأشعلت سـيجارة .. وعدت أفكر فى هدوء وأتوسل بكل ما أعرف من محصول علمى فى جميع المجالات .

ان الأصوات .. جميع الأصوات فى هذا الكون لا تفنى .. وكل ألوان الطاقة يتحول الواحد منها الى الآخر ولكنها لا تفنى . . الكهرباء تتحول الى حركة والحركة الى حرارة والحرارة الى ضوء .

والكبريت حينما يحترق ويختفى هو فى الحقيقة لا يختفى ولكنه يتحول الى غازات ونار وأبخرة .

كل شىء باق .. لا شىء يضيع فى هذه الدنيا .. وانما هو يتحول ويتبعثر ويتشتت .

ولو أمكننا بطريقة ما أن نجمع ما يتشتت فى الكون ونعيده الى صورته الأولى كما نجمع أمواج اللاسلكى من الهواء بجهــاز الراديو الصغير ونعيدها الى صورتها الصوتية الأولى .. لأمكننا أن نعرف الكثير ..

لأمكننا أن نجمع من الفضاء صوت الاسكندر المقدونى .. ونسمع ما كان يقوله على أسوار عكا ..

نعم ..

من يدرى ..

هذا احتمال .. مجرد احتمال .. مجرد نظرية .

قد يكون فى مخ ذلك المريض العجيب .. راغب دميان .. توليفة عصبية خاصة تمكنه من جمع هذه الأصوات كما يجمع الراديو الأمواج اللاسلكية من الهواء ويعيد نطقها .

وقد يكون ما حدث لحظة الاغماء .. أن هذه التوليفة العصبية جمعت من الهواء تلك الكلمات الأسبانية التى كانت مفقودة مشتتة فى الفضاء .. وأعادت نطقها .

نظرية خيالية ولكنها نظرية على أية حال .

وهى ليست بلا أساس ..

انها بداية خيط ..

بداية واهية .. ولكنها بداية ..

واسترحت بعض الشيء ..

ومضيت أدندن فى النافذة ..

وأدرت البيك آب .. ورحت أعبث فى صف الاسطوانات على الرف باحثا عن موسيقى خفيفة تناسب وقت النوم .. ولكن الصف انفرط من يدى وسقط على الأرض .

وانكسرت اسطوانة قديمة ..

ورحت أجمع القطع المكسورة ..

وفى النور قرأت اسم الاسطوانة « بكائية أسـبانية فى رثاء المصارع الأسبانى الشهير دون سباستيان » .

دون سباستيان ؟

نفس الاسم الذى نطق به الرجل وهو مغمى عليه ..

ولم أفهم معنى هذا كله ..

وكنت ما زلت أنظر فى قطع الاسطوانة المكسورة .. ويداى ترتجفان .

- ٢ -

كنت أضع أمام مكتبى نتائج الأشعة والتحاليل والفحوص التى أجريتها وكنت أنظر الى صور الأشعة صورة بصورة وأتمعنها بدقة .. وأمر بأصبعى على كل ركن فى الجمجمة التى تبدو ظلالها فى الصور .

لا أثر يقود الى طريق تشخيص ..

لادليل ..

الصور جميعها طبيعية ..

الفحوص الاكلينيكية لا تلقى أى ضوء على الحالة ..

جميع الاختبارات تشير الى شخص طبيعى مائة فى المائة ..

الأمل الوحيد الباقى كان الرسم الكهربائى للمخ ..

ذلك الجهاز العجيب « الألكترو انكفالوجرام » الذى وصلنى من أمريكا منذ أيام ..

كانت هنا فرصته الذهبية ليكشف عن امكانياته .

ذلك الجهاز الذى يسجل النشاط الكهربائي للمخ ويرسمه على شريط ، كل نبضة كهربائية تخرج من المخ ترتسم فى شكل ذبذبة على الشريط .

وكان قلبى يدق بشـــدة وأنا أستخرج الشريط من الجهـــاز وأبسطه أمامى وأفحصه بعدسة مكبرة ..

أخيرا . .

كانت هنـــاك تلك الذبذبة العالية الغير طبيعية تكاد تمزق التسجيل .

ذبذبة تبلغ قوتها ٩٠ ميكرو فولت تظهر مرة كل ثانية وسط الذبذبات العادية القصيرة التى تتواتر بسرعة فى التسجيلات المألوفة .

وكان من الواضح من شكل الذبذبة العالية وتواترها البطىء المنتظم أنها لا تدل على ورم مخى أو صرع أو التهاب أو أى مرض مخى معروف .

وعدت الى مراجعى ونشراتى ومجلاتى الطبية أبحث عن حالة مشابهة ولكنها كانت ساعات طويلة مضاعة ..

لا اشارة من قريب أو من بعيد الى سابقة مماثلة .

ما زلت فى مكانى متروكا فى غموض حيث بدأت .. لا خيط من ضوء .

بعد كل الفحوص الطبية والتتبع الاكلينيكى الدقيق .. مازلت فى مكانى .

كل ما استطعت أن أكتشفه أن هناك شيئا ما .

الرسام الكهربائى أكد لى أن هناك شيئا ما فى مخ هذا الرجل .. ليس ورما ولا مرضا من الأمراض المعروفة التى درسناها . . ولكنه أيضا ليس الطبيعة السوية للمخ العادى ..

فما هو ذلك الشيء ..

هل أعود الى تفسيراتى الفلسفية فأقول انه مخ به توليفة عصبية خاصة مثل الراديو تلتقط الأمواج وتذيعها .

أم أنه لا مرض هناك ولا توليفة خاصة .. كل ما فى الأمر .. أن راغب دميان استمع الى هذه الأسطوانة الأسبانية كما سمعتها عدة مرات فرسبت معانيها وأسماؤها فى عقله الباطن وعاودته هذه المعانى والأسماء وهو مغمى عليه فراح يهذى بها فى اغمائه .. كما نهذى بذكرياتنا فى أحلامنا .

ولكنه لم يكن يهذى .

لقد كان يتكلم أسبانية سليمة .. ويروى أحداثا وقعت لذلك المدعو دون سباستيان كاميللو .

وكانت فى الحديث حيوية من ينطق لغة يألفها وينطقها كما ينطقها أهلها .. لا بلبلة عقل يهذى .

كان فى الأمر شىء ..

كل التفسيرات غير كافية .

كنت أغوص فى ألغاز متشابكة لا نهاية لها .. وأفكر وقد انتهيت من مرضى العيادة .

وجلست أنتظر راغب دميان على ميعاد خاص .

واكتشفت فجأة أن ساعة كاملة مرت على ميعاده دون أن يحضر .. وهى ليست من عاداته فهو دقيق فى مواعيده .

وانتابنى قلق راح يتزايد شيئا فشيئا .

ورأيت نفسى أنتفض من مكانى وأختطف المعطف من الشماعة وأسرع بالخروج .

وأمام المنزل ١٥ شارع ابن الوليد بحدائق القبة نزلت من العربة .. ورحت أتلفت .

كان هو نفس العنوان الذى أملاه لى فى ورقة الكشف .

سألت البواب عن شقة المهندس راغب دميان .. فقال انها شقة ١٢ فى الدور العلوى .. آخر دور فى العمارة .

وكان المصعد معطلا .. فصعدت ستة أدوار على رجلى .

كنت أصعد ببطء .

وأتوقف من درجة لأخرى لألهث والتقط أنفاسى .

وبينما كنت أستند على درابزين السلم وأستريح لحظـة .. لاحظت سلسولا من الماء نازلا على درجات السلم من فوق .

وصعدت درجة درجة مع هذا السلسول الغريب وأنا أنظر الى فوق فى فضول متطلعا الى مصدر هذا الماء .

وكان الماء ينزل بشدة أكثر وأكثرويتصاعد منه البخار كلما صعدت مقتربا من مصدره مما يدل على أنه يتدفق من مصـدر ماء ساخن .

وأمام شقة ١٢ كان الماء والبخار ينسابان بشدة من تحت عقب البـاب .

وانتابنى القلق . فهذه شقة راغب دميان .

ووضعت أصبعى على الجرس فى اضطراب ، ودققت مرة ثم دقة أخرى طويلة .

ثم رحت أدق دقا متواليا بانزعاج ، وأخبط على الباب .

لا مجيب . .

لا صوت بالداخل سوى صوت حنفية مفتوحة يتدفق منهـا الماء بشدة .

ووقفت مسمرا فى مكانى نهبا لخيالات متضاربه .

ماذا يمكن أن يكون قد حدث .. ماذا يجرى بالداخل .

وما الواجب عمله .

هل أظل واقفا هكذا .. أم أكسر الباب .. أم أبلغ البوليس .

ولم أجد حلا سوى أن أهرول نازلا .. وأبلغ البوليس .

* * *

وأمام الباب المكسور .. والشقة الغارقة فى طوفان الماء .. تقدمنا أنا وضابط البوليس الى حيث يتدفق الماء .. من الحمام .

كان البانيو ملآنا على آخره والحنفية مفتوحة .. والماء يسيل على جوانب البانيو ليملأ الشقة .. والسخان مشتعلا .

وانتقلنا من الحمام الى غرفة النوم .

وفى غرفة النوم .. فوجئنا بامرأة فى ملابسها الداخلية منحنية على التسريحة وفى يدها ملقاط حواجب .

وتقدم الضابط فى حذر ورفع رأسها .. كانت شاحبة ممتقعة اللون وعلى وجهها نظرة فزع هائلة .. وقد فارقت الحياة .

وأمسك الضابط بالتليفون ليبلغ النيابة والطبيب الشرعى .

هل كانت جريمة قتل .

وكيف .. وبأى سلاح .. ولا نقطة دم واحدة .. ولا جرح .. ولا آثار خنق .. ولا دلائل عنف أو اشتباك دموى .

الأثاث مرتب .. مما يدل على أن الميتة كانت فى طريقها الطبيعى لتأخذ حماما .. وأنها أشعلت السخان وفتحت الحنفية لتملأ البانيو .. وبينما كان البانيو يمتلىء .. كانت هى تجمل حواجبها بالملقاط أمام المرآة .

وكانت تجمل حواجبها فى هدوء وهى تنظر فى المرآة .. حينما حدث فجأة أن تولاها ذلك الفزع الهائل الذى قضى عليها .

ماذا رأت فى المرآة لتنقلب سحنتها كل هذا الانقلاب .

لم تكن تقلصات وجهها تقلصات ألم وانما كانت تقلصات خوف .

كانت عيناها جاحظتين محملقتين .. وعند ركنى فمها .. تلك الحركة العضلية التى تدل على الرعب .

ولمحت فى أصبعها دبلة ذهبية .

لا شك أنها خطيبته التى قال انه فى طريقه الى الزواج بها .

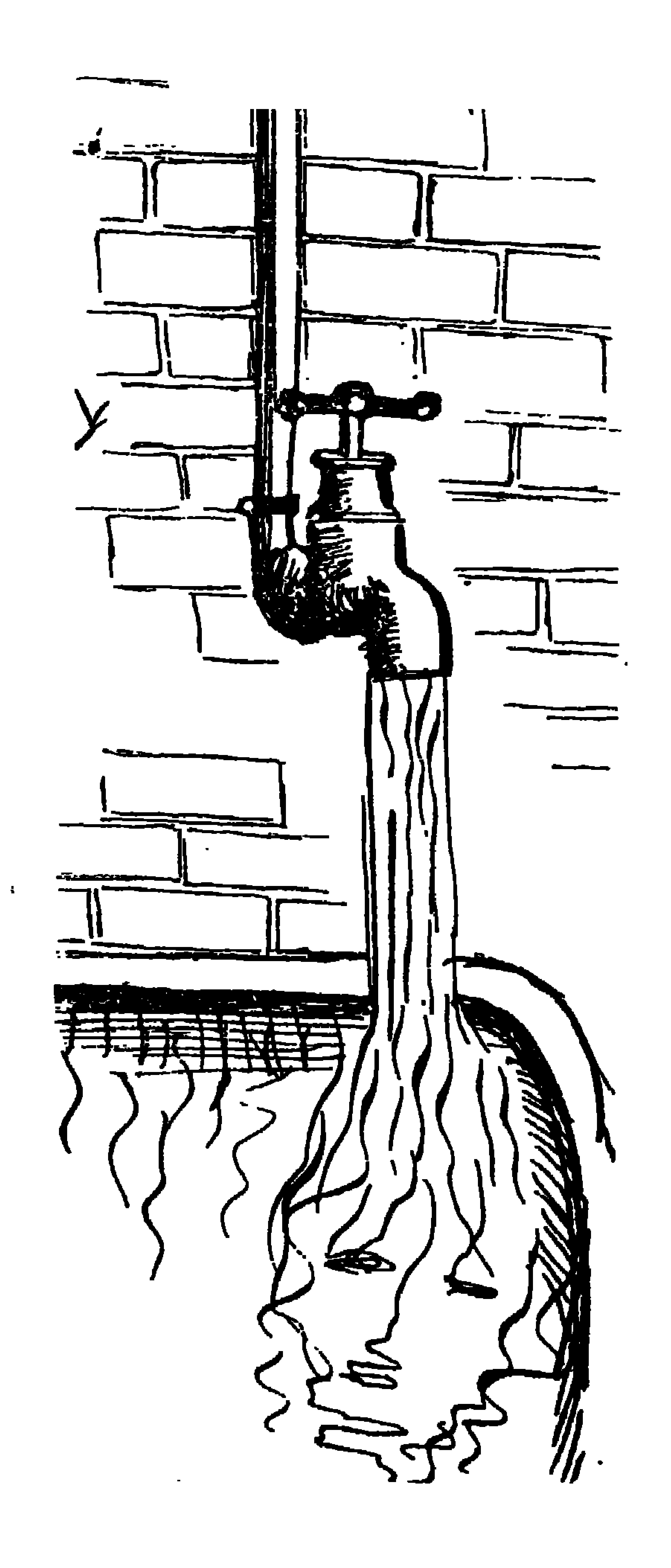
ولكن أين هو ..

أين كان طول الوقت .

صورته على التسريحة يبدو فيها أكثر امتلاءا ووسامة مما رأيته . لا بد أنها صورة قديمة .

هل هو على علم بما حدث فى شقته أم أنه لم يعلم بعد ؟

وأين هو الآن ؟



وتسللت الى حجرات الشقة الأخرى .

حجرة صالون ستيل .. وحجرة أكل .. وحجرة مكتب أقرب الى معمل منها الى مكتب .. مكتب صغير ومنزو فى ركن وبقيــة الغرفة بها مائدة كبيرة مجهزة بحوض ومواقد بنزن وأرفف للمحاليل الكيمائية وأنابيب اختبار وأجهزة تقطير وميكروسكوب موديل حديث قوته التكبيرية تزيد عن عشرة آلاف مرة .. وجهاز غريب معقد لم أفهمه .. أغلب الظن أنه محول كهربائى ذو جهد عال ..

تحت الميكروسكوب موجودة شريحة بالفعل .

ووضعت عينى على الميكروسكوب .

كانت الشريحة لنسيج حى غريب يبدو أنه نسيج جنينى .

ما الذى يجعل راغب دميان يمارس كل هذه البحوث المتشعبة فى الكيميا والتشريح والباثولوجى والبكتريولوجى .. وهو كما ذكر لى فى العيادة مهندس كهرباء فى وحدة أبحــاث الراديوم فى قصر العينى .. ما الذى يجعل بحوثه تمتد الى كل هذه المجالات .

كنت أشعر بدهشة يمازجها الارتياب

من هو ذلك المدعو راغب دميان .

وما حياته ؟

وماذا يعمل بالضبط .

كنت أكاد أشعر من فرط التفكير أن ورم المخ قد أصابنى أنا..

وكان الضابط طول الوقت منكفئا على أرض الغرفة يفحصها . . ويدون أرقاما وملاحظـات فى نوتته . . وأنا أفكر دون أن أصل الى حل .

هل أقول للضابط أنه مريض من مرضاى .. وأنه حول الى عيادتى باشتباه ورم فى المخ ..

أم تكون هذه الشهادة افشاء لأسرار ليس من حقى افشاؤها .

ان ما يقوله المريض للطبيب سر حميم مثل الاعتراف الذى يقوله الخاطىء للقسيس ولا يصح افشاؤه .

وأغلقت فمى وآثرت أن أفكر لنفسى .

وكان السكوت ثقلا جديدا يضاف الى همومى .

ولاحظت وأنا أنظر فى وجه المرأة المتقلص من الخوف .. أن نظرتها المرتاعة تذكرنى بوجه راغب دميان حينما داهمته نوبة الاغماء .

كانت النظرتان فيهما نفس التعبير .. ذلك الرعب المحير لكأنما أطلت العينـان على سر رهيب مروع من تلك الأسرار المطلسمة وراء الطبيعة .

وكنت أشعر برجفة وأنا أطل فى العينين المفتوحتين .. وأغطى عينى بيدى .. حينما سمعت الضابط يقول :

— أنت تعرفه ؟

وفوجئت بنفسى أكذب فى تلقائية :

– من الذى أعرفه ؟

– صاحب الشقة .

– لا .. هذه أول مرة أدخل الشقة .

ونظر الضابط فى وجهى باستغراب فأردفت موضحا :

– جئت على استدعاء بالتليفون .. قال لى المتكلم انه مريض جدا وأعطانى العنوان .

– هل تستطيع أن تصف صوته ؟

– لا أذكر بالضبط .. كانت العيادة ساعتها مليئة وأصوات الشارع تغطى على المكالمة .

ولا أعرف كيف تورطت فى هذه الأكاذيب واحدة تلو الأخرى.

كنت أريد أن أحتفظ بالسر لنفسى .

كنت أرى أن كل ما يجرى فى حياة هذا الرجل من حقى وحدى .. من شأنى .. لا شأن لأحد به .

وكنت أشعر شعورا خفيا بأنى أمام سر لا مكان للبوليس والنيابة فيه .

وتسللت الى غرفة المعمل من جديد مشدودا الى الجو العلمى الذى أحبه .

وأمام الميكروسكوب رحت أضبط العدسات مرة أخرى ..

وأتأمل الشريحة الموضوعة .. وأحاول أن أتفهم طبيعتها .. كانت أشبه بنسيج جنيني .. ولكنى لم أستطع أن أتعرف على طبيعتهـا بالضبط فى الثوانى القليلة التى أتاحتها اللمحة المختلسة .

وبحركة خفيفة من يدى سحبت الشريحة من تحت الميكروسكوب وأسقطتها فى جيبى دون أن يلحظنى أحد .

ولم أنس أن أدس فى جيبى النوتة الحمراء الصـغيرة التى وجدتها الى جوار الميكروسكوب .

عملية سرقة واضحة .

ولكنى لم أستطع أن أقاوم الاغراء .

كانت رغبتى فى معرفة الحقيقة تغفر أمام ضميرى أى شىء ..

وارتفع صوت ضابط البوليس من غرفة النوم .

— فيه نقطة دم .

وأسرعت خارجا .. لأراه ينحنى على السجادة وفى يده عدسة يتأمل بقعة حمراء مستديرة لا يزيد قطرها عن سنتيمتر .

ولم أشأ أن أقول له أن ما يظنهـا بقعة دم ليست الا بقعـة مركريكروم من الذى يستعمل فى مس اللوز .

وآثرت أن أتركه فى غفلته ينسج جرائم ودماء لا وجود لها .

وابتسمت وأنا ألمح زجاجة المركريكروم على التسريحة والى

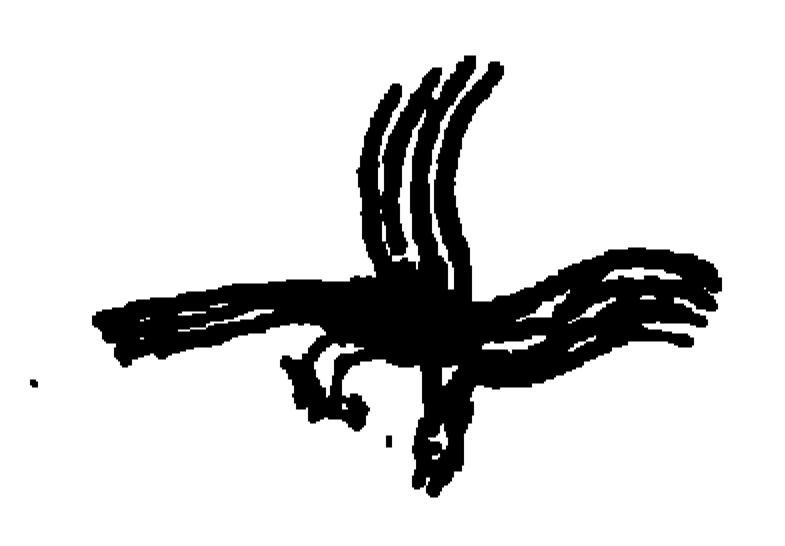
جوارها أدوات المس يستطيع الضابط أن يرسم بهـا مئات البقع الدموية والجرائم كما يشاء خياله الخصب .

وحينما كنت أركب عربتى فى طريق العودة الى منزلى فى ذلك اليوم المضنى كنت أشعر بنشوة عجيبة كلما تذكرت أنى أحمل فى جيبى اللغز .

تلك الشريحة التى سرقتها وعليها القصاصة من النسيج المجهول التى كانت الشغل الشاغل لذلك الرجل راغب دميـان .. ونوتة ملاحظاته وكنت أضغط على البنزين متعجلا الوصول الى معملى .

كنت متفائلا .

وكنت أتخيل أن المسألة لن تحتاج لأكثر من نظرة متأملة من عدسة ميكروسكوب .



– ٣ –

كنت أضع الشريحة تحت الميكروسكوب الكبير الذى استعرته من صديقى البكتريولوجى .. وأحاول أن أفك طلاسمها .

كان ما ظهر لى فى البداية أنه نسيج جنينى .. ظننا خاطئا .. فالخلايا فى تفاصيلها لا تشبه الخلايا الجنينية . . وهناك زوائد واضحة عند أطراف الخلايا مما يجعلها أشبه بنجوم مذنبة . وهى صفة فى الخلايا العصبية للمخ والحبل الشوكى لا فى الخلايا الجنينية البدائية .

ولكن شكل البروتوبلازم والنواة .. وتوزيع الصبغة المستعملة مختلف عما هو مألوف فى الخلايا العصبية .

كان الأمر محيرا ..

وما كان يحير أكثر .. هو شكل النواة فى الخلية .

كانت كبيرة متوهجة أشبه بنواة الخلية السرطانية ..

سرطان ؟ !

سرطان ماذا ؟

ولكن القطاعات التى تبدو للأوعية الدموية فى النسيج لا يظهر فيها التمدد والاتساع والاحتقان المألوف فى السرطانات .. الأوعية الدموية طبيعيـــة .. وعلامات الانقســـام والتكاثر الخـــلوى لا وجود لها ..

سرطان .. وليس بسرطان ..

ونسيج عصبى .. وليس بنسيج عصبى .. فماذا يكون .. ؟!

تذكرت النوتة الحمراء فأخرجتهـــا من جيبى ورحت أقلب صفحاتها .. وأصابتنى خيبة أمل لا حد لها .. فلم تكن الملاحظات الخطيرة التى توقعتها .. الا بيانات بمشتريات منزلية . وحساب الجزار والبقال الصيدلى ..

وشعرت بالصداع .

وأشعلت لفافة تبغ ..

ومضيت أدخن وأفكر فى هدوء وأطفأت النور الذى أتعب عينى من طول الحملقة فى عدسات الميكرسكوب .



كان أملا ضعيفا ..

نعم ..

من يدرى ..

ربما كان هو الآخر قد غادر الدنيا الى غير عودة .. فهو الآخر يعيش على حافة كارثة ..

كانت النيابة قد أخذت شهادتي للمرة الثالثه ..

وكان التحقيق ما زال يسير دون تقدم .. لم يظهر اثر للمدعو راغب دميان وكأنه كان وهما ..

قلب البوليس الأرض بحثا عنه دون جدوى .

اختفى ..

تبخر ..

لا خيط .. ولا دليل .. ولا أثر يقود اليه .

الطبيب الشرعى قال فى كشفه على الجثة .. انها حالة موت طبيعية نتيجة فزع فجائى توقف له القلب وشلت الأعصاب . .

سكتة قلبية .. مثل السكتة التى تحدث فى الوفاة نتيجة الصاعقة ..

كيف حدث هذا الأثر الصاعق ..

ما هو ذلك الخوف الذى يوقف القلب ويشل الأعصاب كما تشلها الصاعقة ..

أسئلة ..

مجرد أسئلة بلا أجوبة ..

وكنت أنا الآخر أسأل نفسي .. وأفكر .. دون نتيجة .. كل الفرق أنه كان عندى أمل فى أن يتصل بى راغب دميان ..

فى كل نوبة من هذه النوبات التى تنتابه كان يبدو وكأنه يروح فى غيبوبة الموت .. وكأنه يخطو الى هاوية لا قرار لها ..

نبضه الممتلىء كان يخفت حتى يصبح همسا . وتنفسه كان يتحول الى لهاث ..

وأطرافه تبرد وتتثلج ..

ثم ذلك الفزع الذى يظهر عليه فتتسع حدقتاه فى جنون مثل حدقات مدمنى السكوكايين وتتشنج أطرافه وتتصلب كأعواد من حديد ..

ماذا كان يرى فى غيبوبته ليفزع كل هذا الفزع ..

ثم هذه اللغة الأسبانية التي كان يتكلمها فى طلاقة كما يتكلمها أصحابها دون أن يتعلم منها حرفا ..

هل هى حالة عصبية أم نفسية أم روحية ..

هل هى حالة فى متناول العلوم الطبية المعروفة ..

كان الرد على هذا السؤال قابعا فى أدراجى .. فى صور الأشعة

العديدة التى التقطتها للرأس .. فى رسم المخ الكهربائى .. فى تحليلات الدم والسائل السحائى .. فى الفحوص الأكلينيكية المضنية التى أجريتها ..

وعدت الى صور الأشعة أحاول مرة أخرى .

وأضأت النور .. وعدت أضعها الواحدة الى جوار الأخرى .. ورحت أتفحصها فى هدوء .

وفجأة ..

هبطت الحقيقة وكأنها الهام ..

لا لم تكن الهاما ..

لقد تصادف أن كان على الفانوس الخاص باستطلاع الصور .. صورة قديمة لجمجمة عادية لرجل سليم ..

ولأول مرة أمكن لى أن أقارن الصورتين ..

لم تكن ظلال الجمجمة فى صورة راغب دميان ظلالا عادية كما تصورتها للوهلة الأولى ..

كانت العظام كلها أرق قليلا من المألوف ..

ملاحظة كان من الصعب ادراكها بدون اللجوء الى المقارنة المباشرة .. لأن الأثر الذى لحق بالعظام .. لحق بها جميعا فاحتفظت الصور بنسبها الطبيعية ..

ما معنى هذا ..

العظام أرق من المألوف ..

فراغ الجمجمة أكبر ..

هل هى حالة مرضية فى العظام ..

لا .. لم تكن حالة عظام بدليل عظام العنق فى الصورتين ..

كانت عظام العنق فى الصورتين متماثلة وطبيعية ..

العظم سليم ..

وما حدث لعظام الجمجمة ليس مرضا بالعظام .. وانما نتيجة ثانوية لما حدث فى المخ ..

المخ ازداد فى الحجم ..

عظام الجمجمة تمددت ورقت ..

الذبذبات الكهربائية الخارجة من المخ ارتفعت قوتها من ٥٠ ميكروفولت الى ٩٠ ميكروفولت .

هناك شىء ما حدث فى المخ ..

وبرق فى ذهنى خاطر ..

ان ما حدث فى مخ راغب دميان .. المرجح أن يكون قد حدث مثيل له فى مخ خطيبته .. بدليل حالة الفزع التى عاشها الاثنان .

ومن حسن الطالع أن مخ الخطيبة المتوفاة أصبح فى الامكان تشريحه ودراسته .

وقفزت من مكانى لهذا الخاطر .

ورفعت سماعة التليفون لأطلب الطبيب الشرعى الذى أشرف على الحالة .

وأجابنى الدكتور على الطرف الآخر من الخط .

سألته فى خبث عن بعض التفاصيل فى التشخيص .

كنت فى الحقيقة أريد أن أعرف مصير الجثة .

وكان ثرثارا بدرجة جعلتنى فى غنى عن استدراجه .

حكى لى أن الجثة ظلت فى قصر العينى ثلاثة أيام دون أن يتعرف عليها أحد ..

ثم تقدم رجل عجوز قال انها ابنته التى خرجت من أيام ولم تعد ... وبكى بمرارة واستلم الجثة ووقع على استمارة الاستلام بامضاء عوض ابراهيم .. وأنه قرأ بعد ذلك نعيا فى الصحف للمتوفاة تحت اسم مارى عوض . فيه أسماء جميع أقاربها بما فيهم الأب عوض ابراهم .. وأن تشييع الجنازة سيكون فى الصباح والدفن بمقابر الروم الكاثوليك .. قرأ هذا فى صحف اليوم .

وفى الحقيقة لم أكن أريد أن أعرف أكثر من هذا ..

انها دفنت اليوم بمقابر الروم الكاثوليك .

ربما من ساعات .

ولم يكن أمامى وقت أضيعه .

كان لا بد من الوصول الى الجثة والحصول على المخ بسرعة قبل أن يتحلل .

وارتديت ثيابى .. وأخذت عربتى .. وأسرعت الى المقابر ..

كانت الساعة قد بلغت الواحدة بعد منتصف الليل والبرد شديد والرياح قارصة .. والشوارع خالية تماما .

وشعرت بالاطمئنان .

فى مثل هذا الخفاء والظلمة والسكون يستطيع الواحد أن يفعل أى شىء ..

وبلغت بوابة المقابر .

وكان الحارس ينام فى غرفة الى جوار الباب .

ولم تكن هناك وسيلة لمعرفة المقبرة والوصول الى الجثة دون معونة الحارس .

وظللت أطرق باب الغرفة عدة مرات قبل أن أسمع خطوة الحارس وهو يتعثر وأسمع تثاؤبه .. ثم أراه يفتح الباب وينظر الى وقد فغر فاه فى دهشة .

لم يكن غريبا على .

وسرعان ما تصافحنا فى ود .. فقد كان الرجل مريضا قديما من مرضاى أعالجه من سنوات من حالة صرع مزمنة .

وجرى كل شىء بعد ذلك فى هدوء .

صحبنى الرجل الى المقبرة ومعه أدواته .

وصدق الرجل أنى أفعل هذا بتفويض من النيابة وأن فى الأمر سرا خطيرا لا يجب أن يعلم به أحد .

ومضى وقت وهو يرفع البلاطة الرخامية ..

وكان صوت معوله وهو يهوى فى الصمت والخراب كأنه يدق على أعصابى .

وأخيرا كان الصندوق يتمدد أمامى فى ضوء النجوم .

هناك فى قلب ذلك الصندوق كانت الحقيقة تنام . لا يفصلنى عنها سوى غطاء خشبى .

الحقيقة ... !!!

وعلى ضوء بطارية صغيرة رفعت الغطاء ليفاجئنى منظر مروع .

كانت الجثة ممددة فى الصندوق بلا رأس .

الرأس مقطوعة من جذورها .

وأذهلتنى المفاجأة ... وألجمت لسانى ..

ونظرت بارتياب الى الحارس .. ولكن الحارس كان يقف مثلى وقد اتسعت عيناه من الصدمة وراح يحملق فى الصندوق فى بلاهة .

كان واضحا أنه خالى الذهن تماما مما حدث .. وأنه أكثر منى جهلا بالفاعل ..

وسقط قلبى فى ضلوعى وكأن رأسى أنا هى التى قطعت .

وتذكرت راغب دميان .

كنت أرى يديه على الجثة .. وآثار بصماته على الصندوق .. وآثار أقدامه على الأرض المتربة .

لم يكن هناك شك فى أنه صاحب المصلحة الوحيد فى هـذا العمل .

كنا كلانا نجرى خلف شىء واحد مثل كلبى صيد منطلقين خلف سر رهيب .

وكززت على أسنانى .

لقد سبقنى ..

سبقنى . .

كنت أشعر بخيبة أمل لا حد لها .

واعدت الغطاء الى مكانه .

وتركت الحارس يسوى الأرض ويضع البلاطة مكانها .

وعدت أدراجى وأنا أشعر بأن خطواتى ثقيلة وساقى وارمتان.

كان يجثم على يأس لا حد له . .

كنت أقول لنفسى .

اذا كان هنـاك معنى أكيد لهـذا كله . .فهـو أن راغب دميان حى .

وأنه يعيش فى مكان ما .

وانه لابد سيلجأ الى .

لا بد سيلجأ الى .

هل كنت أطمئن نفسى ؟ ؟

— ٤ —

أصبح التفكير فى راغب دميان جزء لا يتجزأ من حياتى .. فأنا أصحو وأنام على وجهه الهضيم الممعود وعينيه الزائغتين ..

وأنا أسمع صوته ..

وأنا أهذى به فى أحلامى ..

وأنا أتخيله طول الوقت فى معمله وقد انفرد بالرأس التى نزعها من الجثة وراح يفحصها ..

ماذا تراه قد وجد من أسرار فى تلك الحقيبة من الجلد والعظم التى اسمها الدماغ .

وأى بحوث غريبة يجريها . .

هذه الخلايا الحية التى اسمها المخ .. كيف ترى وتسمع وتحس وتشم وتفهم ..

كيف نشعر بالألم ..

وكيف نشعر باللذة ..

وكيف يخلق لنا المخ هذا الضوء الذى اسمه الوعى والادراك.

هل المخ هو العقل .. أم أنه مجرد وسيط يستخدمه العقل ليتعقل الأشياء .. أن ما قاله لنا الطب عن المخ والأعصاب قليل ، وأقل من القليل .. فالأعصاب أدوات استشعار تنقل المؤثرات الخارجية الى مراكز فى المخ كما تنقل أسلاك التليفون الكلام الى الأذن .. وفى هذه المراكز كما فى الأذن يتم تصور هذه المؤثرات بالشكل الذى نراها به فى الواقع ..

أننا نشعر بالمؤثرات العصبية على هيئة حرارة .. وبرودة .. وضوء ورائحة .. وألم ولذة ..

ولكن كيف ..

هذه الترجمة التى يترجم بها مخنا كافة المؤثرات التى تصل اليه ..

هل هى ترجمة صحيحة .

هل الماء لا طعم له ..

وهل الليل أسود .. والنهار أبيض ..

أم انها احدى الصور الممكنة بين ممكنات لا عداد لها ..

هل يمكن أن يكون لهذا العالم شكل آخر .

وهل يمكن أن نراه على صورة أخرى أكمل وأشمل وأصدق.

ان السر فى المخ .

اننا نبدأ ونتنهى الى المخ دائما .. فهو المترجم الألكترونى لهذه الدنيا ..

هو الذى يصنع لها صورتها وشفرتها ..

فاذا أردنا أن نرى للكون صورة أعمق وأصدق من التى نراها .. فلا سبيل سوى أن نفك هذا الجهاز الألكترونى والذى اسمه المخ ونعيد تركيبه ليكون أقدر على هذه الرؤية الجديدة التى نطلبها ..

انه المخ دائما ..

حقيبة الأسرار ومفتاح جميع هذه الرؤى السحرية ..

المخ أولا اذا أردنا أن نعرف حقيقة أى شىء ..

وهو يعلم هذا جيدا ذلك الرجل .. راغب دميان ..

وربما كان فى هذه اللحظة يستخرج المخ من الجثة ويضعه

على المشرحة .. ويقطعه جزءا جزءا ليفحصه بذلك الميكروسكوب الذى يكبر عشرة آلاف مرة .

وهو قد توصل الى شىء .. شىء لا أعلمه .. ولكنه خطير .. يستطيع أن يوسع نطاق المعرفة والرؤية والاحساس ..

وربما أوصلته هذه البحوث الى رؤى جديدة مفزعة ..

نعم .

كان السر هناك تحت خبطات مشرطة فى تلك اللحظة ..

وأنا هنا ألهث أمام أبواب مغلقة ..

وكانت الساعة قد بلغت الواحدة .. وأنا ما زلت مسهدا .. أستجدى النوم بلا فائدة .

وفكرت أن أجرب الطريقة المألوفة فى جلب النوم .. بالقراءات السخيفة . .

وبدأت أقلب أكوام الجرائد القديمة الى جوار الفراش .. أقرأ الاعلانات . والوفيات والمقالات المملة والحوادث التى قرأتها قبل ذلك مرات ومرات ..

وبدأت الحروف تتراقص أمام عينى .. وبدأت أنعس .

وكنت أوشك أن أنام .. حينما التقطت عيني عنوانا فى صفحة الحوادث فى جريدة قديمة عن سرقة عشر ابر راديوم ثمنها أكثر من عشرين ألف جنيه من قسم أبحاث الراديوم بالقصر العينى .. وقد أبلغ عن السرقة مدير القسم المهندس راغب دميان ..

وطار النوم من عينى فجأة .. وقفزت من فراشى ..

ورحت أقرأ الخبر مرة ومرات وأنا أفرك عينى وأعود فأقرأ من جديد الاسم بالبنط الأسود .. راغب دميان ..

وقرأت تاريخ صدور الجريدة ..

كانت صادرة منذ ثلاث سنوات ..

ولا أدرى لماذا احتفظت بها كل هذا الوقت ربما بسبب هذه الاحصائية المنشورة عن الأمراض العصبية فى مصر والموجودة بنفس العدد ..

من كان يظن أني يمكن أن أضع يدى على سر خطير بهـذه البساطة ..

أنه هنا ..

راغب دميان بعينه . .

وهذه السرقة التى أبلغ عنها هى من صنع يديه . .

فلا أحد يسرق راديوم الا لص عالم وبحاثة يعرف فوائده وينوى استخدامه والاستفادة به .

لا يمكن للص عادى أن يمد يده الى راديوم ..

وأين يبيعه اذا سرقه .. وكيف .. وماذا يعنى الراديوم بالنسبة له ؟ لا شيء .

ان هذه السرقة وثيقة الصلة بالبحوث التى كان يقوم بها راغب دميان منذ ذلك الحين ..

وربما كان هذا التاريخ هو بداية اشتغاله بهذه البحوث ..

وكتبت التاريخ فى ورقة ..

وقطعت قصاصة الخبر من الصحيفة واحتفظت بها . .

لقد تقدمت خطوة ..

أن راغب دميان لابد يحتفظ بهذه الابر الثمينة من الراديوم فى مكان آخر غير بيته وغير معمله الذى اقتحمه البوليس . .

ومعنى هذا أن معمله الحقيقى وأدواته فى مكان سرى مختف عن الأعين .. وفكرت ..

أن هذه الأبر الثمينة من الراديوم المشع سوف تفضحه ..

وكتبت ملحوظة فى نوتة بشراء عداد جيجر .

عن طريق هذا العداد الذى يكشف عن أقل اشعاع سوف

أستطيع معرفة مكان المعمل السرى ومخبأ ابر الراديوم ..

* * *

كان أول شيء فعلته حينما تيقظت فى الصباح .. هو شراء عداد جيجر

ورسمت خطة محكمة لتقسيم القاهرة الى عشر مناطق .. أذرع كل منطقة بالعربة فى يوم .. أتجول فى كل شــبر فيها .. وأتحسس طريقى .

وسوف يتولى العداد كشف المنطقة التى فيها الراديوم .. ثم يدلنى على البيت .. والغرفة .. والخزانة ..

لن يكلفنى الأمر أكثر من الصبر والمثابرة .

وبدأت اليوم الأول بحماس ..

وظللت أتجول فى ضاحية حدائق القبة .

فكرت أنه ربما أختار مخبأه قريبا من بيته .

ولكن بحثى لم يسفر عن شيء .

كانت عيناى على مؤشر العداد طول الوقت ولكنه كان ينام نوما ثقيلا فى مكانه ..

وفى اليوم التالى كنت أذرع شوارع المعادى .

و فى اليوم الثالث كنت فى الدقى ..

وفى اليوم الرابع كنت فى الجيزة ..

وفى اليوم الخامس كنت فى مصر الجديدة ..

منطقة بعد منطقة رحت أذرعها فى صبر وأناة .. دون جدوى..

فكرت أنه ربما كان يضع ابر الراديوم فى خزانة من الرصاص مزدوجة الجدران ..

وبمثل هذا الاحتياط يستطيع أن يمنع الاشعاع من التسرب بقدر يسمح باكتشافه .

كان مثل هذا الاحتياط بديهيا من مهندس أشعة يعلم أنه سارق ..

وكان معنى هذا أنى ألهث وراء شىء لا وجود له ..

وصرفت النظر عن هذه المطاردة . .

وخيم على اليأس من جديد . .

ولكن لا أدرى لماذا برقت فى ذهنى من جديد حكاية النوتة الحمراء ..

لماذا فكرت فجأة انه من غير المعقول أن تكون كل وظيفـة هذه النوتة هى ادراج حسابات الجزار والبقال والصيدلى ..

ولماذا توضع مثل هذه النوتة بجوار المكيروسكوب ..

وبسرعة أخرجتها من جيبى ورحت أتصفحها من جديد ..

وما كدت أقلب الصفحات الأولى حتى فوجئت بصفحات فى الوسط مكتوبة بالرصاص ، فيها معادلات كيمائية ..

وفى صفحة أخرى ملاحظات متناثرة على شكل خواطر ..

- لوحظ أن العصب البصرى يحتوى على أكثر من مليون خط عصبى ..

- وأن الاشارات العصبية تنتقل فى الأعصاب الطويلة مثل أعصاب الساقين عن طريق محطات تقوية كهربائية كيمائية .. وأن الليفة العصبية ليست فى الواقع الا سلسلة من محطات التقـوية تماما كما فى الكابلات التى تنقل الاشارات التليفونية عبر البحر ..

— كيف تبقى البطاريات فى الخلايا العصبية مشحونة على الدوام وفى حالة صالحة للارسال والاستقبال طول العمر .. هذا هو السؤال .

— فى الوقت الذى تنقبض عضلات القلب ٧٠ مرة فى الدقيقة.. ولا تكاد تنقبض عضلات المحار والأصداف الا مرة كل عـدة ساعات لاغلاق المحارة وفتحها . . لوحظ أن عضـلات أجنحة الحشرات تنقبض حوالى ٥٠٠ مرة فى الثانية ، المادة التى تتكون منها عضلات هذه الحشرات هى الاكتوميسين (هى مادة بروتينية)..

كيف يمكن أن تتم العمليات الكيمائية فى هذه العضلات بشل هذه السرعة والكفاءة ..

— الجسم الصنوبرى فى المخ .

— الأثر الاشعاعى على الكروموسومات .

وتحت كلمة الجسم الصنوبرى ثلاثة خطوط .

حاولت أن أفهم المعادلات الكيمائية ولكن معلوماتى فى الكيميا لم تسعفنى ..

ولماذا الاهتمام بالجسم الصنوبرى بالذات .

أنا أعلم من دراستى للتشريح أن الجسم الصنوبرى هو زائدة فى المخ بلا وظيفة معروفة .. وكان معتقدا فى الماضى أنها مركز الاتصالات الروحية .. وهو اعتقاد خرافى رفضه العلماء من زمن ..

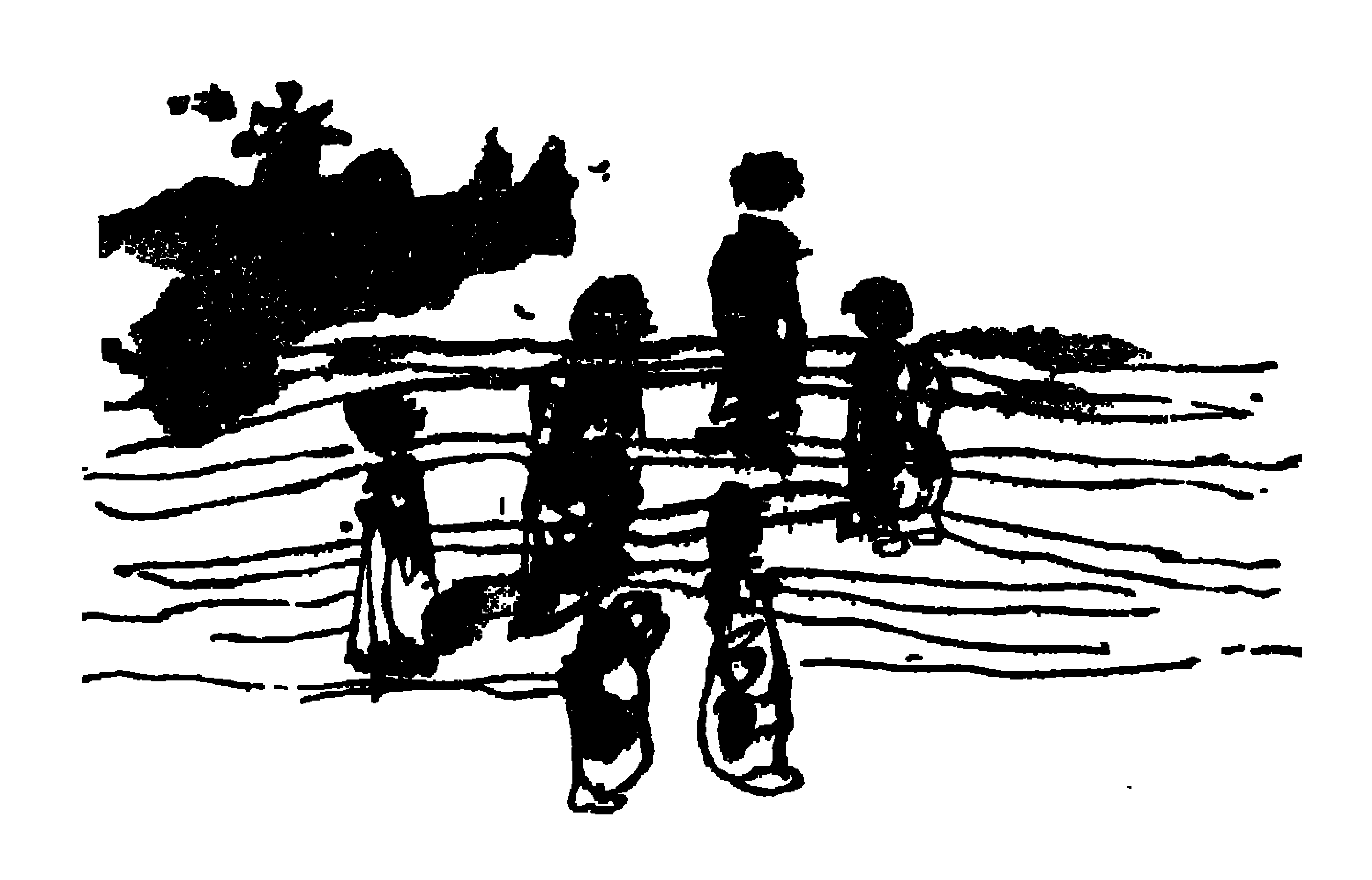
ما الذى يجعله يفكر فى الجسم الصنوبرى ، ويضع تحته ثلاثة خطوط ..

واهتمامه بالكروموسومات (وهى ناقلات الصفات الوراثية) وبتأثير الاشعاع عليها .. ومادة الاكتوميسين ! ..

هل هذه المعادلات الكيمائية هى محاولات للوصول الى تركيب مادة الاكتوميسين ..

كانت الملاحظات كلها مكتوبة على شكل خواطر عابرة .. ولكنها فتحت أمامى عالما من الغوامض التى يعيش فيهـا ذلك الباحث الغريب ..

ما الذى يجرى وراءه دميان ..



— ٥ —

ان ما يجرى وراءه راغب دميان هو اكتشاف سر الحياة ..

ان الكلمات القليلة المكتوبة فى النوتة تشير الى هذا .. فبحوثه تدور حول سر التفاعلات الكهربائية الكيمائية فى الخلية العصبية.

كيف تتولد التنبيهات الكهربائية فى الخلية العصبية .. وكيف تنتقل هذه التنبيهات الى العضلات .. وكيف تنقبض هذهالعضلات فى حشرة بدائية خمسمائة مرة فى الثانية .

من أين تنبع هذه القوة المجنونة التى تحرك جناح حشرة مثل مروحة طائرة .. وما سر هذه المادة السحرية « آكتوميسين » التى تتألف منها العضلة الحية .. « والكروموسومات » ؟ ! لغز الحياة

المطلسم .. تلك القضبان الدقيقة فى أنوية الخلايا والتى لا ترى الا بأقوى الميكروسكوبات .. تلك القضبان التى تحوى على كل الصفات الوراثية للانسان .. وما هو أكثر .. أنها تكاد تكون أرشيفا لتاريخ الحياة كله مسجلا على المادة الحية متنقلا معها من جيل الى جيل .

انه يحاول ان يكشف سرها بالتأثير عليها بالاشعاعات .

وأخيرا تلك الزائدة الغامضـــة فى المخ البشرى (الجسم الصنوبرى) التى تتدلى مثل ترمسة صغيرةفى وسط المخ بلا وظيفة وبلا دور معروف .

هل يمكن أن يكون قد وصل الى سرها ؟ ! ماذا اكتشف ذلك الرجل الهضيم الشاحب ؟

انه يسرق .. ويقتل .

نعم .. ربما كانت هذه الوفاة التى بدت وفاة طبيعية هى جريمة قتل دبرها بوسائله ليحصل على مخ الضحية .

ربما كانت تجربة رهيبة من تجاربه ..

وربما كان فى طريقه الآن الى جريمة أخرى .

كنت أقود عربتى بسرعة فى طريق مصر اسكندرية الزراعى ذاهبا الى طنطا فى مشوار عائلى .

وكنت غارقا فى تساؤلات لا آخر لها وقد استقرت قدمى على

دواسة البنزين على آخر سرعة حينما ظهرت أمامى فجأة عربة نقل كبيرة .

وضغطت بآخر قواى على الفرملة وانحرفت فى الاتجاه الآخر لأنزل أنا والعربة فى حقل محروث حديثا .

وكنت حسن الحظ لأن العربة غاصت فى هدوء وأمان فى التربة المحروثة .. وكتبت لى النجاة من موت أكيد .

وتصبب العرق على وجهى وشعرت بأصابعى باردة ثلجية مبتلة ورحت أمسح وجهى بأنامل مرتجفة .

وكان قد تجمع حول العربة بعض الفلاحين راحوا يدفعون العربة التى غرست فى التربة الرملية .

وخطوة .. خطوة .. بدأت العجلات المغروسة تتحرك ..

ومددت يدى لأدير المارش ..

وحانت منى التفاتة الى عداد جيجر الذى وضعته على عارضة العربة واتسعت عيناى من المفاجأة ..

كان مؤشر العداد قد اندفع على الميناء مشيرا الى وجود اشعاعات راديوم عن قرب .

معنى ذلك أن مخبأ دميان عن قرب .

اشعاعات راديوم عن قرب

معنى ذلك أنى على بعد خطوات من السر ..

ربما دورة أو دورتين بالعربة فى المنطقة .. وأستطيع أن أحدد بالضبط مصدر تلك الاشعاعات .

ونظرت حولى ..

كان الطريق الزراعى خاليا ..

لم تكن هناك آثار لمساكن سوى فيلا صغيرة على بعد خمسمائة متر من المكان ..

لم يكن هناك مجال لاحتمالات عديدة .

وانما هو احتمال واحد فى الغالب ، هو أن هذه الفيللا فى هذا الطريق المقطوع هى المخبأ السرى .

وكان معنى هذه الاشعاعات القوية أن الراديوم موضوع فى مكان مكشوف وليس محفوظا فى خزانته الرصاصية التى تحجب الاشعاع .. وربما كان موضوعا فى تجربة بالفعل .

وتوترت حواسى كلها وأنا أتطلع الى النوافذ ذات الستائر المسدلة وأوقفت العربة على جانب الطريق على بعد كاف لا يثير الريب .

وتسللت الى الفيللا لأصعد السلالم القليلة فى المدخل .. ثم أقف أمام الباب أتلفت حولى فى حيرة .

هل أدق الجرس . .

لا ..

ان أى اشعار بطارق غريب سوف يعطى الرجل وقتا كافيا ليخفى معالم كل شيء . .

لابد من وسيلة للمفاجأة ..

لا بد من الدخول من طريق آخر غير الباب .

لو أنى التففت بالعربة حول الفيللا ووقفت بها تحت البلكونة الخلفية لأمكننى أن أصعد فوق العربة وأقفز منها الى البلكونة كالقطة بأقل جهد يذكر . .

وفى لحظة كنت أدور بالعربة .. وأقف بها فى المكان المناسب . وأصعد عليها ثم أقفز لأصبح فى البلكونة لا تفصلنى عن الداخل الا ستائر حريرية هفافة . .

وأزحت الستائر فى حذر وأدخلت عينى متلفتا لأكتشف أن البلكونة لغرفة نوم ، وأن غرفة النوم خالية ..

كانت هناك صالة واسعة وممر وغرفة مضاءة فى آخر الممر وباب الغرفه مفتوح ، ويبدو منه جهاز أتوكلاف كبير ..

أنه المعمل ..

ولا بد أنه عاكف الآن على العمل ..

هل أدخل ..

أم أختبىء حتى يخرج لأفتش بحرية فى كل شيء ..
وآثرت الاختفاء ..

وعدت الى غرفة النوم لأتمدد تحت السرير وقد أصخت بكل آذنى الى كل حركة ..

ومرت ساعة كئيبة شعرت فيها أنى أتثلج .

ولم أسمع خلال هذه الساعة الطوية حركة واحدة تدل على وجود حياة الى جوارى .

وفكرت ..

ربما كان فى الخارج وقد أشعل النور قبل خروجه ليوهم أى لص من لصوص الطريق أنه موجود ..

وخرجت من مخبىء بهذا الأمل الضعيف وتسللت الى الصالة. ثم الى الباب المفتوح .. لأطل فى خوف .. واكتشفت أن المعمل كان خاليا طول الوقت ..

وبعد دقيقة أخرى من التجول الحذر تيقنت أن البيت خال بالفعل وأن صاحبه فى الخارج ..

ولم أشأ أن أضيع لحظة ..

كان المعمل هو هدفى ..

وفى مكان واضح على يمين الباب شاهدت المخ الذى أبحث عنه فى حوض فورمالين ..

وبنظرة واحدة اكتشفت أن المخ مقطوع قطعا طوليا وأن الجسم الصنوبرى منزوع منه . .

وعلى مائدة أخرى شاهدت مخا آخر ثم ثالث ورابع فىأحواض فورمالين .. وقد قطعت كلها قطوعا طولية ونزعت الأجسام الصنوبرية منها .

وتجمد الدم فى عروقى ..

هل أنا أمام سفاح مجنون يقتل ضحاياه بالجملة .. ويتخذ من الأجسام البشرية الحية حقلا لتجاربه .

أم أن ما اكتشفه ذلك الرجل من أسرار جعله يستهين بكل قيمة انسانية فى سبيل أن يضع يده أخيرا على لغز الحياة ..

ونظرت أمامى ..

كان هناك مولد للكهرباء الاستاتيكية .

ومرشحات وأنابيب تقطير متعددة وأصباغ وأحماض وقلويات ومحاليل عيارية وأحواض صغيرة لزرع الأنسجة الحية وميكروسكوب .

وفى الركن الخزينة الرصاصية المزدوجة الجدران التى توضع بها ابر الراديوم . .

وكانت الخزينة مفتوحة وخالية . .

وفى الركن الآخر كرسى عجيب يشبه كرسى طبيب الأسنان مثبتة على جانبيه روافع عديدة .. وعند رأس الكرسى ثلاثة أنابيب

زجاجية مفرغة تشبه أنابيب أشعة المهبط التى توجد فى أجهـزة أشعة اكس . .

والجالس فى هذا الكرسى يمكن أن يكون هدفا لأشعة مركزة تأتيه عن يمينه وعن يساره ومن خلفه .. ثلاث حزم من الأشـعة تنعكس من ثلاثة عواكس لتتركز فى نقطة واحدة فى رأس الجالس على الكرسى .. يمكن أن يحددها المشرف على العملية سبقا عن طريق الروافع المتعددة المحيطة بالكرسى .. وهى روافع مزودة بيراجل دقيقة لقياس قطر الرأس ومحيطها .

جهاز غريب .. لم يسبق لى أن رأيت مثله .

وبعض أجزاء الجهاز مصنوعة محليا . .

انه غالبا جهاز مخترع . .

ولكن أى نوع من الأشعة يطلقه هذا الجهاز الجهنمى ..

هل هى أشعة راديوم .

أن ابر الراديوم لامكان لها فى الجهاز . .

والأنابيب الزجاجية المفرغة تختلف فى مقاييسها عن أنابيب أشعة اكس المعروفة ..

أنه يطلق اشعاعا خاصا ذا ذبذبة عالية التردد .. ربما اشعاع جاما أو اشعاع بيتا أو أى لون من ألوان الاشعاعات القصـيرة الموجة وربما كان يستخدم لونا من النظائر المشعة .

وكيف يتأتى له الحصول على النظائر المشعة بدون معونة مفاعل ذرى . .

ولاحظت وجود بارافان وراءه شماعة ربما كانت وظيفته أن يخلع الزائر ثيابه من خلفه ويعلقها على الشماعة استعدادا لفحوص طبية وكيميائية معينة ..

شيء مريب ..

ولاحظت أن البارافان يؤدى أيضا الى باب فى الخلف . .

والباب يفتح على غرفة مربعة .. بها جهاز آخر غريب يشبه مفاعل ذرى صغير ولكنه ليس مفاعلا ذريا بالمعنى العلمى المفهوم..

وفى مركز الجهاز بومبة راديوم .. بها ابر الراديوم المفقودة ..

وكان من الواضح أن ذلك الرجل توصل الى عدة مراحــل يحطم فيها المادة الى اشعاعات .

وأنه يستخدم هذه الاشعاعات فى تجاربه على المخ الحى ..

ولكن ما الداعى الى مولد الكهرباء الاستاتيكية .. وما دوره فى العملية .. وأجهزة التقطير والأصباغ والمحاليل العيارية ومواقد بنزن العديدة ! ؟ . .

لابد أن هناك عملية استخلاص كيميائية أخرى لها أهميتها..

ووضعت عينى على الميكروسكوب . .

وفوجئت برؤية الميكروسكوب يسبح فيه عــدد هائل من الحيوانات المنوية . .

لم تكن حيوانات منوية آدمية .. وانما حيوانات منــوية مستخلصة من مثانات ضفادع فى الغالب ..

وتأكد استنتاجى حينما رأيت بويضات ضفادع متعددة فى نفس المجال المكيروسكوبى . .

كان معنى هذا أنه يحاول مشاهدة عملية تلقيح البويضة على الطبيعة وعملية الانقسام والتخليق الجنينى . . ودور النـواة والكروموسومات فى العملية ..

وكان مؤشر الميكروسكوب يشير بالفعل الى نواة البويضة والى كروموسومات .. وفهمت من وجود سحاحة بها سائل أزرق الى جوار الميكروسكوب أنه يحاول أن يجـرب دور المؤثرات الكيميائية المختلفة على الكروموسومات .

انه معمل باحث متعمق فى الطبيعة الحية . .

وكانت على المائدة كراسة مذكرات ..

ومددت يدى لأفتح الكراسة .. ولكن يدى تجمدت مكانها .. فقد سمعت المفتاح يدور فى قفل الباب وأرجل مسرعة تدخل ..

وتلفت فى ارتباك أبحث عن مكان أختبىء فيه ..

ولم أجد أمامى الا البارافان ..

وأسرعت أختبىء خلفه وكتمت أنفاسى .. فى الوقت الذى فيه دميان ومعه رجل آخر كبير الرأس ..

وكان دميان يبدو أشد نحولا وأشد شحوبا مما كان ..

وسمعته يقول لزائره وهو يشير الى الكرسى الذى يشبه كرسى طبيب الأسنان ..

— هذا هو الجهاز الذى سيشفيك من الصلع .

— ربنا يجعل فى يدك الشفا .

— باذن الله الاعتماد على الله .

وأخذه من يده مردفا ..

— اخلع الطاقية من على رأسك . وتعالى اقعد هنا .

وأشار الى الكرسى .

وخلع الرجل الطاقية ولاحظت أن رأسه صلعاء تماما ..

وعرفت الخدعة ..

ان دميان استدرج الرجل الأصـلع بزعم أنه سوف يعالجه من الصلع ..

وبهـذه الطريقة سوف يضعه على الكرسى ويسلط الأشعة الجهنمية على مخه .. ويكيفه كما يشاء فى الوضع الذى يختاره .. ليكون موضوعا لتجربته وربما لجريمته فيما بعد حينما يصبح المرحوم مخا فى أحد أحواض الفورمالين المتراصة على المائدة ..

كنت على وشك أن أشهد بعينى جريمة قتل بشعة ..

وفكرت بسرعة .. بينما جلس الرجل الأصلع على الكرسى .

وأخذ دميان يقيس رأسه بالبراجل العديدة المثبتة فى الروافع.. ويدون المقاييس فى نوتة .. ثم يعدل من وضع أنابيب الأشعة ويغير الزوايا العاكسة ليضبطها على المسافات المطلوبة .

ثم فتح أحد الأدراج وأخرج حقنة معقمة .. ملأها بسائل أزرق .. يشبه السائل الذى فى السحاحة .. وحقنها فى وريد الرجل ..

ونظر الى ساعته قائلا :

— بعد عشر دقائق سوف أبدأ العلاج ..

وسألت نفسى وأنا أفكر بسرعة .. ولماذا عشر دقائق بالذات ..

وأسعفتنى ذاكرتى الطبية ..

ان هذه هى الدقائق المطلوبة لتصل المادة المحقونة فى الدم الى الجسم الصنوبرى فى المخ ويبدأ فعلها .. وبعد هذا يبدأ العلاج ..

ولن يكون العلاج الا تسليط هذه الأشعة الجهنمية من زوايا ثلاث على الجسم الصنوبرى ..

بعد دقائق تبدأ جريمة رهيبة .. وأنا واقف أتفرج ..

لا بد من عمل ..

لا بد من عمل ..

- ٦ -

انقضت الدقائق العشرة ..

وبدأ دميان يوصل التيار الكهربائى ويدير أزرار الجهاز ..

وأضاءت أنابيب أشعة المهبط الثلاث بوهج خافت .. وارتفع أزيز الآلة الجهنمية .

وتلفت حولى فى ذعر .

واكتشفت أن سكينة التيار الكهربائى ورائى .

كانت أشبه بطوق نجاة يلقى الى فى آخر لحظة .

وبسرعة فصلت السكينة فانطفأت الأنوار وغرقت الغرفة فى ظلام دامس وسمعت دميان يقول فى ضجر :

انقطع التيار مرة أخرى .

ثم يردف فى غيظ وقد أعد نفسه للانتظار :

– أمرنا لله ..

ولكن الانتظار طال ولم يعد التيار الى حاله .. وأنا أتنفس الصعداء فى مخبئى .

ومرت ساعة ترقب طويلة مملة .

ورأيت دميان يضىء بطارية صغيرة ويقول لزائره :

– يبدو أن التيار سيظل مقطوعا طول الليل ..

يحسن بنا أن نؤجل العلاج للغد .

– كنت أريد أن أنتهى من العلاج وأستريح .

– ليس أمامنا حل آخر .

ورأيت الاثنين يخرجان .. وسمعت الباب يفتح .. وخطوات الاثنين تنزل السلم .. وتغيب فى الطريق .

وفكرت بسرعة .

ان وجودى وراء البارافان يعطينى الفرصة لأراقب كل مايجرى فى الغرفة ويعطينى الفرصة فى نفس الوقت لأن أطفىء النور وأهرب فى الظلام من الباب الخلفى اذا دعا الأمر .

كان مكانا مناسبا يجعلنى وسط الأحداث باستمرار .

ولم يكن فى نيتى أن أواجه راغب دميان .

كنت أريد أن أتركه يعمل بحريته تحت وهم أنه وحيد فى معمله .. لأعرف منه كل شىء .

ولهذا قررت البقاء فى مكانى .

ومرت دقائق ظننتها ساعات .

ثم سمعت المفتاح يدور فى الباب وخطوات دميان داخله ..

كان وحده هذه المرة .. وشعاع البطارية الصغيرة يلمع فى يده .

وبحركة خفيفة أعدت السكينة الى مكانها .. فتلألأت الأنوار فى المعمل وسمعت دميان يمصمص بشفتيه فى ندم :

— لو أننا انتظرنا قليلا ..

ورأيته يفرك يديه وينظر الى المصباح المضىء فى عتاب .. ثم يفتح الكراسة ويطل فى المكرسكوب ثم يلقى بالشريحة التى عليها الحيوانات المنوية فى البلاعة .. ويفتح صندوقا يستخرج منه ضفدعة حية يشقها بمشرطه بسرعة .. ليفرغ ما فيها من حيوانات منوية على شريحة جديدة يضعها على المكرسكوب .. ثم يمضى يلاحظ . . ويدون ملاحظاته بسرعة .

ويمد يده الى السحاحة ويفتح صنبورها فتنزل قطرات قليلة زرقاء من القطارة على شريحة المكرسكوب .. ويعود الى الفحص وتدوين الملاحظات .

وبعد ساعة أخرى من العمل المتواصل رأيته يقف وينظر حوله متعبا ويمسك برأسه ويفركها ويفرك عينيه كأنما ليحاول أن يطرد

نعاسا .. ثم رأيته يخرج حقنة من الغلاية يملؤها بالسائل الأزرق ثم يعرى ذراعه ويضغط فوق مكان الوريد بقطعة من الجلد ثم يغرس الابرة بمهارة وسرعة ويحقن نفسه .

وراح ينظر الى ساعته ويعد مرور الثوانى والدقائق .

وبعد عشر دقائق كان يتجه نحو الآلة الجهنمية ثم يجلس على كرسيها ويوجه أنابيب الاشعاع الثلاثة واحدة الى جبهته والثانية الى جانب من رأسه والثالثة الى الجانب الآخر .. ثم يضغط على الأزرار فتضىء الأنابيب الثلاثة بوهج خافت ويدوى ذلك الأزيز الرهيب .

وتجمد الدم فى عروقى وأنا أشاهد ما يجرى أمامى .

انه يجرى تجربة الموت على نفسه .

انه نفس السائل الذى حقن منه فى وريد الرجل .. ربما نصف الكمية ولكنه نفس السائل .

وها هو يجلس مكانه ويسلط الأشعة الرهيبة على مخه .

هل بامكانه أن يتحكم فى مقدار جرعة الأشعة عن طريق هذه الأزرار الى جواره .

أظن انه بامكانه أن يفعل هذا فهناك أكثر من عداد للأمبير والفولت على واجهة الجهاز .

ورأيته يدخل فى نوبة تشنج فتتصلب عضلاته كأعواد من حديد

وتظهر فى عينيه تلك النظرة الهائلة من الذعر وكأنه يرى أبواب الجحيم تفتح أمامه .

ثم يدخل فى غيبوبة كاملة يسترخى فيها كأنه فى نوم عميق .

ثم سمعته يتكلم .

كان يتكلم بنفس النبرات الهادئة الواضحة كما كان يتكلم حينما اعترته النوبة فى عيادتى .

وكان يتكلم باللغة الأسبانية السليمة كما حدث تماما فى المرة الأولى ..

واستطعت أن أترجم ذلك الكلام الذى يوجهه الى دون سباستيان كاميللو .

— يا صديقى ان ما حدث فى ذلك اليوم ما زال محفورا فى رأسى .. لم تكن مفاجأة لى أن ينفجر اللغم فى الوقت والساعة التى انفجر فيها .. لقد كنت على علم بكل شىء .. وكنت أرى اللغم أمامى .. كنت أراه بعينى هاتين .

وتغيرت نبرته تماما وكأنما قد لبسه شخص آخر .. شخص أجنبى النبرة لاهث الأنفاس هو دون سباستيان .

— لا أصدق .. يا الهى .. هل يمكن أن يكون هذا معقولا .

— هناك حالة نفسية لا يعرفها الا من عاش فى الحرب مدة طويلة .. حالة تستبد بالجندى فاذا به يندفع ليلقى بنفسه الى الهلاك وكأنما يحدوه دافع باطنى الى الخلاص بنفسه من كل هذا

الجنون .. فاذا به يدخل فى خط النار ويمشى على الألغام ويسعى الى الموت مفتوح الذراعين .

ــ دون ميجولو فارجا أنت دخلت بنا فى حقل ألغام .. وأنت تعلم أنك داخل فى حقل ألغام ؟

ــ نعم كنت أعلم .

ــ دون ميجولو فارجا أنت مقبوض عليك .

وسمعت ضحكة مجلجلة من دون ميجولو فارجا .

ــ تقبض على ماذا ؟؟ !! .. ألا ترى أنى مقبوض على بالفعل فى جاكتة جبس وبنطلون جبس منذ شهور وأنى لا أحرك ذراعا ولا ساقا ! ؟ تقبض على الجبس لتضعه مرة ثانية فى الجبس . ؟

وعادت الضحكة المجلجلة تدوى مرعبة فى الغرفة :

ــ وكيف ستنفذ أمر القبض يا جاويش سباستيان كاميللو .. أنسيت أنك تنام الى جوارى مقطوع الذراعين فى الجبس مثلى .

وسمعت دون سباستيان يزأر ..

ــ سوف أقبض عليك بأمر القانون .

وعاد دون فارجا يضحك .

ــ القانون انتهى العمل به من زمان أيها الجاويش .. آنسيت أننا هزمنا فى الحرب . وأن هناك قانونا آخر الآن فى الحكم .



وعاد يضحك ضحكته الباردة المرعبة ..

— أنظر حولك . اننا الآن أسرى ولسنا أبطالا .. وهذه الأعلام المرفوعة ليست أعلامنا ... لقد انتهينا مع الدنيا التى انتهت .

وسمعت زئير دون سباستيان ..

— أنت مجنون .. مجنون .. مجنون ..

— ثم تحول الزئير الى عويل وأنين وبكاء مختنق ونبرات متهدجة ..

— وما العمل .. وما العمل .

— سوف نموت .. سوف نموت .

وسمعت صراخ دون سباستيان .

— أنا لا أريد أن أموت .. أنا أريد أن أعيش . أنا أريد أن أعيش ..

واختفى الصراخ ليتحول الى نشيج مكتوم .

وكنت أرى دميان يهتز بالنشيج الذى يخرج من بين جنبيه .

كان من الواضح أنه مجرد أداة لهذه الأصوات الغريبة التى تخرج منه .. مجرد بوق .. أو راديو .. أو اسطوانة .. أو شريط تسجيل ..

هل هى أرواح .

ومن هو دون كاميللو ودون فارجا ؟

هل لهما وجود ؟

ورأيت راغب دميان يفتح عينيه ببطء ويتلفت حوله .. ثم يمد يده فى ضعف فيضغط على مفتاح فينطفىء الوهج المشع ويتوقف الأزيز ..

واكتشفت أن هناك جهاز تسجيل صغير كان سجل ما يجرى طول الوقت .

وكان وجه دميان شديد الشحوب وعيناه حمراوين مثل كأسين من دم ..

ورأيته يسيل على ترموس صغير يفتحه ويجرع منه جرعة شرهة.

ورأيته يدير جهاز التسجيل ويستمع الى الأصوات التى سجلها أثناء غيبوبته ويدون ملاحظات فى نوتة .

ثم يتثاءب ويقوم متعبا .. وينظر فى ساعة يده ويمسح على جبهته ثم يطفىء النور ويخطو الى غرفة النوم .

ولم أتحرك من مكانى حتى سمعت صوت باب غرفة النوم يغلق.

وكانت أول فكرة خطرت لى أن أسرق كراسة المذكرات ولكنى خفت أن يتيقظ فى الليل ويدخل المعمل فيكتشف السرقة .. وربما استبد به الخوف فهجر مخبأه وفقدت أثره الى الأبد .

ولهذا آثرت أن أترك كل شىء على حاله ..

وانسحبت عائدا فى خفة من حيث أتيت .

ومع أول نسمة من هواء الشارع البارد برق فى ذهنى خاطر

أن أتصل تلغرافيا بسفير مصر فى أسبانيا وهو صديق عزيز ، أسأله كل ما يستطيع معرفته بشأن دون ميجولو فارجا ودون سباستيان كاميللو ..

وهل كانا ضمن جنود الحرب الأهليـــة الأسبانية وماذا كان مصيرهما .

كان أملا واهيا ولكنى تعلقت به .

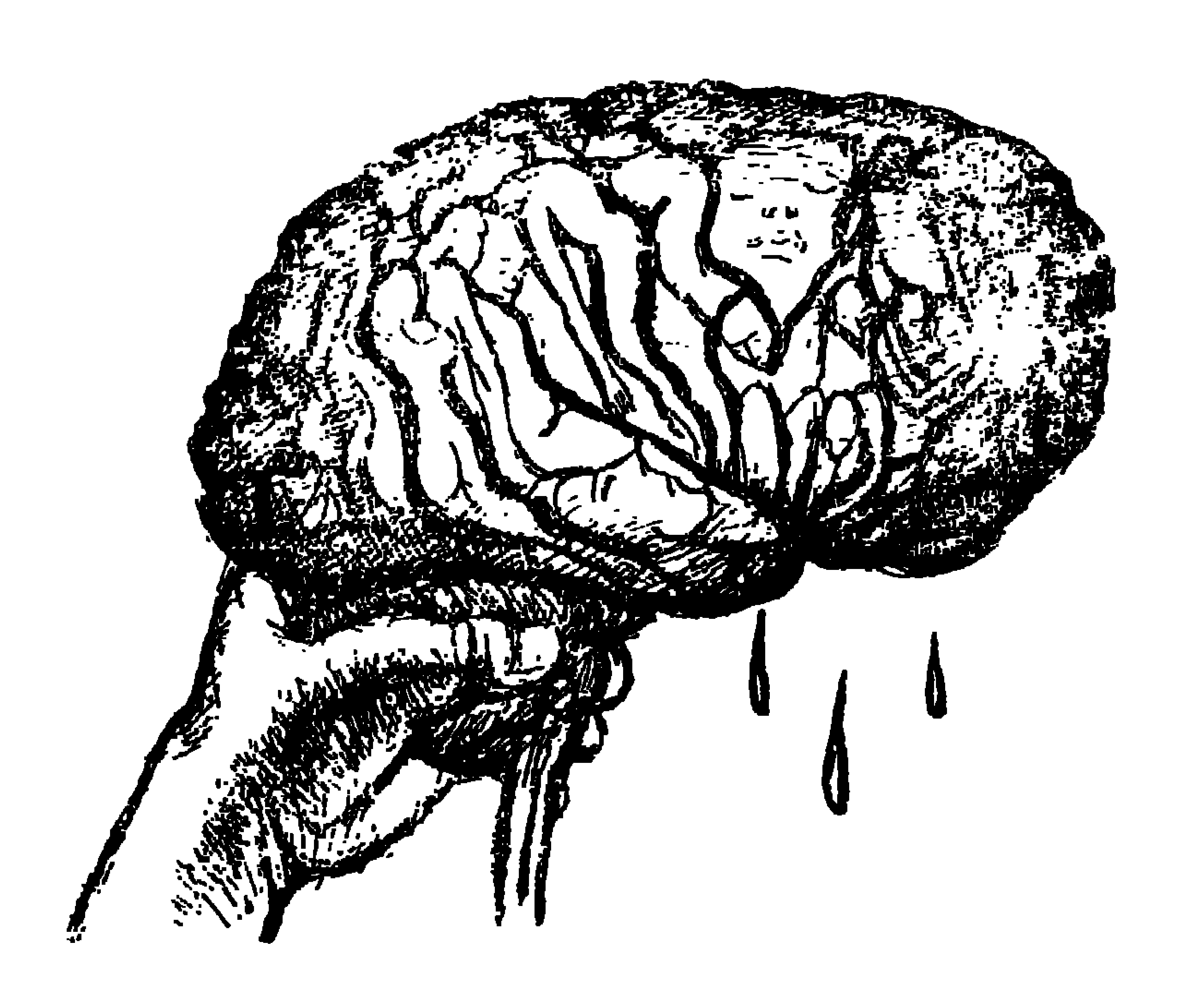
وكانت الساعة العاشرة مساء تدق فوق رأسى وأنا أكتب آخر كلمة فى التلغراف وأسلمه الى موظف المكتب .. والمطر ينزل رداذا فى الشارع وأنا أقود عربتى فى طريقى الى البيت ..والشارع يلمع فى المطر .. وعقلى سابح فى ألف فكرة وفكرة .

هل أنا أهذى ؟

هل كان هذيانا كل ما رأيت وسمعت .. هل هو كابوس .. هل أنا أحلم ؟ ..

ذلك الحــديث بين اثنين لا وجود لهمـــا .. دون كاميللو ودون فارجا ..

وهو حديث يبدو منه أنهما يتكلمان من سريرين متجاورين فى مستشفى وأنهما أسرى حرب وأنهما جرحى .. وموضوعان فى الحبس وأنهما يصارعان الموت .



وآخر كلمة فى الحديث هى صرخة دون كاميـــللو بأنه يريد أن يعيش .

من الواضح أن أسبانيا لا تخوض حربا .. وأن الحديث هو حديث عن حرب انتهت .. أغلب الظن انها الحرب الأهلية الأسبانية .

الحديث كله مجرد ماض بعث حيا على لسان دميان الذى كان أشبه بوسيط .

هل مسكن ؟

هل ممكن أن نعيش الأصوات فى الجو هذه السنوات حتى تجد وسيطا فتعود لتبعث من جديد على لسانه .

أم انها صرخة الارادة المتشبثة بالحياة هى التى أعطت لهـــذا الماضى الذى انعدم رخصة الحياة من جديد .

هل هى معجزة ارادة .. وصرخة اصرار ؟

وارادة من ؟؟ !

ارادة رجل مات .. ومن المفروض أن تكون ارادته قد ماتت معه .

هل أنا أعود فأهذى من جديد ؟

انه لشيء مربك حقا .

- ٧ -

كنت أروح وأغدو فى غرفتى التى أغلقت بابهـا .. ثم أعود فأجلس فى فراشى .. ثم أقوم فأقعد أمام مكتبى .. ثم أعود فأحطـ بعض الحروف على الورقة .. أفكر وأكد ذهنى ، وكأنى أمام لغز من الكلمات المتقاطعة لا تلتقى فيه كلمة على كلمة .. أحاول أن استجمع الحقائق الغريبة المتناثرة فى هذا اللغز المتشابك .. من أول اليوم المشئوم الذى طالعت فيه وجه دميان .

جريمة ١٥ شارع ابن الوليد بحدائق القبة .

والجثة المنزوعة الرأس فى مقابر الروم الكاثوليك .

والمخ المقطوع قطعا طوليا فى حوض الفورمالين وقد نزع منه الجسم الصنوبرى وذلك العدد من الأمخاخ المتراصة فى الأحواض.

أين رءوس أصحابها .. وأين جثثهم ..

ماذا يفصـل ذلك المجنون بالآلة الجهنمية التى يسلطها على رءوس ضحاياه .

وأية أشعة رهيبة اكتشفها .

وما هى تلك البحوث المريبة التى يجريها على الحيوانات المنوية التى يستخلصها من ضفادع حية .

وما هو السائل الأزرق الذى يستخدمه فى تجاربه ؟

وما سر النوبة التى تستولى عليه ؟.

وما حقيقة الأصوات التى يهذى بها فى نومه ؟

عشرات الأسئلة .. وعلامات الاستفهام .

وأشد ما يفزعنى احساسى بأن الرجل فى طريقه الى هاوية .

ماذا يحدث لو أنه فقد عقله .

معنى هذا أن تنقطع صلتنا بالحقيقة الى الأبد .

كان لا بد من وسيلة لاكتشاف كل شىء قبل أن يفوت الوقت .

ولكن كيف ؟

كيف يمكن أن نعرف ما بداخل جمجمة ؟

كيف نكشف ما يدور فى عقل ؟

كنت أروح وأجىء فى عصبية حينما دق الباب ودخل الخادم يحمل تلغرافا .

كان هو التلغراف المنتظر من أسبانيا .

وقرأت الرد المكتوب باختصار شديد :

« دون سباستيان كاميللو مصارع ثيران مات فى الحرب الأهلية الأسبانية ودون ميجولو فارجا لم يمكن التعرف عليه » .

اذن فهى الحقيقة .

لم تكن الأصوات هذيانا .. ولم تكن الأسماء اختلاق عقل مجنون وانما هى أسماء لناس عاشوا بالفعل .

وما دار من حديث هو تحصيل حاصل .

لقد دار هذا الحديث ذات يوم منذ سنوات بين أسيرى الحرب دون كاميللو ودون فارجا وهما يصارعان الموت فى مستشفى بعد انتهاء الحرب الأهلية الأسبانية .

وما فعله دميان هو أنه التقط هذا الحديث من العدم .

كيف تمت هذه المعجزة .

عن طريق عضو مجهول من أعضاء المخ غالبا عضو معطل عندنا .. هو الجسم الصنوبرى .. استطاع دميان أن ينبهه بقذائف الاشعاع وبالمادة الكيمائية التى يحقنها فى الدم .. فاذا به يتحول الى حاسة مرهفة .. عين داخلية ترى وتسمع من خلال الماضى .

رادار يكشف شبكة الحوادث ويخرق حجب الزمن .

أمر يثير العجب حقا .

ولكن من يدرى .

ماذا لو فكرت دودة عمياء أن فى جهازها العصبى البدائى بذرة السمع والبصر .

ماذا لو فكرت أنها ذات يوم سيخرج لها أحفاد لهم عيون وآذان .. لا شك أنها تعجب ولا تصدق .

وكذلك حالنا نحن العميان بالنسبة للمستقبل .. لا نصدق أنه يمكن أن نرى فى الزمان كما نرى فى المكان .. وأن التاريخ يمكن أن يتحول بالنسبة لنا الى مسرح مرئى .. وأن فى مخنا بذرة لجهاز عجيب يمكن أن يستطلع الماضى ويرى ما حدث فيه رأى العين .

انه أمر مثير حقا .

ان وجه الدنيا ليتغير كثيرا اذا قدر لنا أن يتسع نطاق رؤيتنا الى هذا المدى فنرى الماضى كما نرى الحاضر ونسمع الأحداث التى ولت وغبرت كما نسمع الأحداث التى تجرى حولنا الآن .

اننا نصبح كالملائكة .. كالأنبياء .. كالأرباب .

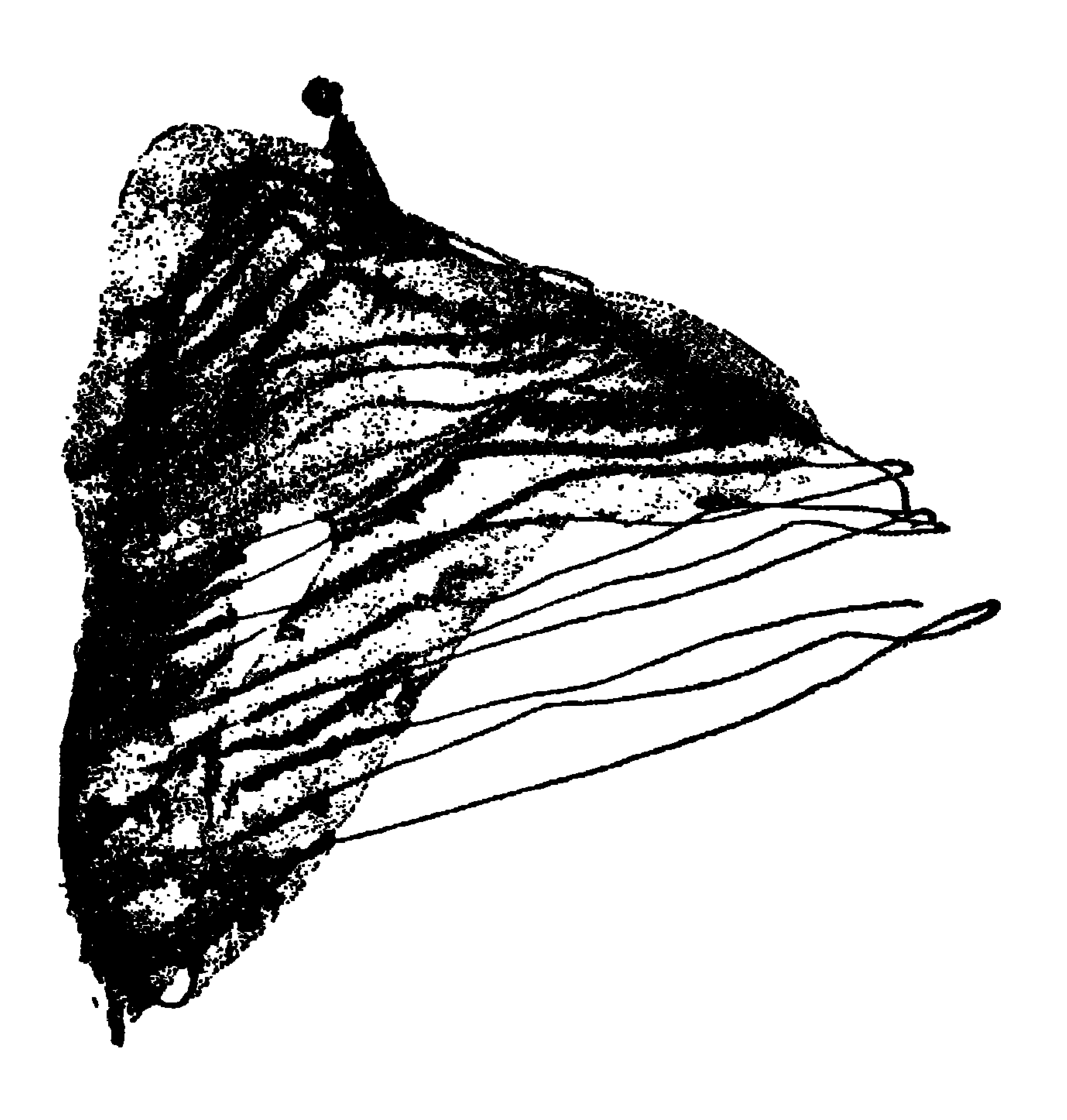
ولكن كيف يمكن .

كيف يمكن أن أضع يدى على السر .

كيف أصل الى ماكشفه ذلك الرجل .

لا بد من خطة ..

وكنت أعرف الطريق جيدا هذه المرة .. فقد أخذت طابعا لثقب الباب بالشمع واصطنعت لى مفتاحا خاصا .



ودخلت خلسة بينما كان دميان فى الخارج .

وكان كل شىء فى المعمل على حاله .

وكانت هناك غلاية للحقن تغلى فوق سخان كهربائى .

ولاحظت وأنا أضع يدى على جهاز الأشعة انه ساخن .. مما يدل على أنه كان فى حالة تشغيل منذ مدة قريبة .

وقبل أن أفكر كيف حدث هذا .. كنت أسمع خطوة دميان على السلم وصوت مفتاحه يدور فى الباب .

وأسرعت لأختفى وراء البارافان .

ورأيت دميان يدخل .. وفى يده لفافة كبيرة .

ورأيته يضع اللفافة على المائدة ويفتحها .

كان بداخلها صندوق زجاجى فيه عنكبوت .. واحد من تلك العناكب الضخمة التى تكثر فى المناطق الاستوائية الحارة .. وسرت فى بدنى قشعريرة وأنا أنظر الى رأس الحشرة والى العيون العديدة الصغيرة التى تبرق فيها .

وكان يخيل الى أن هذه العيون ترمقنى فى مخبئى .

وبين لحظة وأخرى كان العنكبوت يدور حول نفسه ويدير رأسه المتعددة العيون كأنها قبة مرصد فلكى ، وينظر الى محتويات الغرفة ..

وكنت أرتجف فى مكانى حينما تقع عيونه الكثيرة على .

ولم تدم هذه اللحظات طويلا .. لأن دميان وفى يده آلة تشريح

غريبة تشبه شوكة ذات فرعين .. ما لبث أن فتح الصندوق .. وغرس الشوكة فى خفة فى ظهر العنكبوت .. وبمشرط صغير قطع العنكبوت الحى قطعا طوليا ..

ثم بدأ يعمل مشرطه فى مهارة وسرعة فى منطقة الرأس .

وبعد لحظات كان ينتزع كتلة هلامية بيضـــاء كروية الشكل ويضعها فى أنبوبة اختبار بها محلول .

ورأيت الكتلة الهلامية تذوب بالتدريج فى المحلول لتتحول الى مستحلب أبيض .

ورأيت دميان يشرع فى اضافة عدة محاليل الى المستحلب ثم يضع المزيج فى جهاز يعمل بقوة الطرد المركزية ليفصل الرواسب وحدها .. والمحلول الرائق وحده .

وبعد ادارة الجهاز عدة دقائق رأيته يضع الرواسب فى دورق زجاجى ويضيف اليها قطرات من حامض كبريتيك مركز وكحول ثم يكمل الدورق الى منتصفه بالماء المقطر .. ثم يبدأ فى عملية أشبه بالتقطير .. كان يضيف فيها قطرات من محاليل عدة .

وبمضى الوقت اختلطت على تلك العمليات الكيمائية لكثرتها فلم أعد أستطيع متابعة تفصيلاتها خاصة وأن أغلب المحاليل التى استعملها كانت محاليل مجهولة بالنسبة لى .. كل ما فهمته أنه يعالج هذه الخلاصة معالجة كيمائية شديدة التعقيد .. ليخرج فى النهاية بسنتيمترات قليلة من سائل أصفر .

ورأيته يتناول هذا السائل بأيد ضنينة ليضعه فى الأتوكلاف ثم يضبط ساعة الأتوكلاف على وقت معين .. ثم ينظر حوله فى راحة .. ويتثاءب ويغادر المعمل ذاهبا الى غرفة نومه .

كان يقوم بكل خطوة فى هدوء وثقة .. مما يدل على أنه يعرف سلفا ماذا تعنى هذه الخطوة .. للدرجة التى يستطيع فيها أن يترك المعمل ليذهب وينام وهو مطمئن أن كل شىء سيسير على مايرام .

ومضت دقائق .

وسكنت الحركة فى غرفة النوم .

وكان معنى هذا أنه نام .

ولم أستطع أن أقاوم فضولى .. فخرجت من مخبئى .. وكان أول ما اتجهت اليـــه هى ساعة الأتوكلاف لأعرف على أى وقت ضبطها .

ورأيتها مضبوطة على العاشرة .

معنى ذلك أنه أعطى نفسه ساعتين راحة .

ومعنى ذلك أن أمامى ساعتين قبل أن يدق جرس الأتوكلاف نيوقظه ..

ساعتان ..

وقت طويل .. ولكنه بدا لى فى تلك اللحظة قصيرا جدا .

نظرت الى العنكبوت والى رأسه المشقوقة .. والى الحفرة الشاغرة حيث كانت تستقر الكتلة الهلامية التى انتزعها .

لم يكن مخ العنكبوت كما خيل الى .. ولكن غدته اللعابية .

لقد فتح دميان رأس العنكبوت ليحصل على غدته اللعابية .

كان هذا أمرا غريبا بالنسبة لى ..

لماذا يتجشم دميان كل هذه المتاعب ليحصل على الغدة اللعابية لعنكبوت .

وفتحت كراسة المذكرات .

ومضيت أقلب صفحاتها .. وكانت أغلب الصفحات مكتوبة بشفرة كيمائية خاصة .. لا سبيل الى معرفتها الا بمعرفة مفتاح الشفرة .

وفى صفحة رأيت بعض عبارات بالقلم الرصاص :

- خلاصة من براعم نبات الأكادينيا ..
- سرعة نمو البيضة الملقحة (الجنين) فى محلول ملحى قلوى ..
- الهرمونات كعامل مساعد .
- لا يمكن رفع درجة حرارة المحلول أكثر من أربعين درجة والا ماتت جميع الحيوانات المنوية .

وكلمات أخرى مشطوبة لم أستطع قراءتها .

كان من الواضح أنه يجرى بحوثه فى فروع مختلفة كل الاختلاف .

مسألة حيرتنى غاية الحيرة .

حاولت أن أخرج بخيط مشترك يمكن أن يربط الغدة اللعابية لعنكبوت بالحيوان المنوى بالبيضة الملقحة فى الجنين بالبراعم فى نبات الأكادينيا .

أية رابطة يمكن أن تربط هذا الخليط .

نعم .. أية رابطة .

يبدو أن هناك خيطا بالفعل .

خيل الى أن هناك رابطة .. فجميع هذه الأشياء تشترك فى صفة الحيوية والنمو السريع .

البرعم فى النبات هو أكثر أجزاء النبات حيوية وأسرعها نماء .. وكذلك الجنين .. وكذلك الغدة اللعابية للعنكبوت فهذه الغدة هى التى تصنع الخيوط التى يغزل بها العنكبوت بيته .. ولهذا فهى أكثر الأعضاء نشاطا وحيوية .. والحيوان المنوى هو الآخر يحمل بذرة التجدد والحياة فى كيانه العضوى الضئيل كأكثر ما تحمل خلية نشطة .

ان دميان يبحث اذن فى سر النشاط والحيوية والنمو والتجدد .. ويختار خاماته الحية من الأعضاء التى تتصف بهذه الصفات .

وهو يهدف من عمليات الاستخلاص الكيمائى العثور على المادة السحرية .. المادة الباعثة للحياة والنماء والنشاط .

انه يبحث عن المنبه الطبيعى للحياة .

وفتحت الأتوكلاف .

كانت فيــه عدة خلاصات مرقمة .. على كل واحدة رقمهــا وحروف بالشفرة عن مصدرها .

وفى ركن رأيت أنبوبة فيهـــا السائل الأزرق الذى حقن به نفسه .

وتناولت الأنبوبة .

وشممت رائحة غريبة .

كان السائل له رائحة غريبة أشبه برائحة الثوم .

وبينما كنت أتفحص الســائل سمعت حركة .. ورفعت عينى لأفاجأ بدميان واقفا أمامى .

كانت عيناه حمراوين مثل كأسين من دم ، وجفونه وارمة .. وخداه منتفخين .. وشعره مشعثا .. وكان يخطو ببطء كأنه نتعلم المشى .. ويكاد يقع فى كل خطوة .

وكان يفتح فمه ليحاول الكلام فلا يستطيع النطق .. وكان يمد يده فى ذعر الى الأنبوبة التى فى يدى ، وترتجف شفتاه ، وتظهر على جانبيهما رغوة ..

ورأيته يأخذ نفسا طويلا كأنه عطشان الى الهواء .. ثم يتهاوى على الأرض .

أسرعت اليه .. كان يلهث .. ويفتح عينيه ويغلقهما .. ثم يغيب لحظة عن وعيه .. ثم يعود ينظر حواليه ويهمس :

— أنا لم أقتل أحدا .. أنا قتلت نفسى .. الذين ماتوا لم أقتلهم ولكنهم ماتوا لأن عمرهم انتهى بعد أن عاش كل منهم مليون عاما .. ماذا كانوا يطلبون من الدنيا أكثر من هـذا .. أنا أيضا عشت مليون عاما .. أنا رأيتك منذ ولدت أول مرة .. أنت لا تعلم أنك ولدت مرات ومرات .. مرات كثيرة لا تعد .. وانك عجوز .. عجوز .. عمرك مثل عمر الهرم الأكبر .

وبدأت عيناه تغيمان وبدأ يسرح ويهوم فى عالم آخر وينظر الى كأنه ينظر من خلالى الى فراغ .



— ٨ —

كان دميان فى حالة عقلية عجيبة .. أشبه بالغيبوبة .. ولـكنها ليست غيبوبة .. بل هى قريبة من اليقظة والتفتح والشفافية والجلاء البصرى ..

كان ينظر الى الأشياء وكأنها تشف له عن معانى وأشكال غير أشكالها .. وكان ينظر الى وجهى .. ويبتسم كالأطفال ويهمس :

— أناديك بأى اسم .. أنت لك أسامى كثيرة أكثر من ألف اسم .. أناديك باسمك أيام المماليك .. أم أيام الأتراك .. أم أيام الخلافة الفاطمية .. تصور أن اسمك كان فى يوم من الأيام بهلول الحلبى .

وضحك ..

وخيل الى أن الاسم يبدو مألوفا بالرغم من غرابته ..

وأردف دميان وهو يبتسم :

— بهلول .. بهلول .. تصور .. أصلك كنت بهلول الخليفة .. البهلول الذى تتشقلب أمامه لتضحكه .. كنت قصيرا طول ذراعى هذا .. نعم .. وهذا أنت أراك أمامى الآن وأنت تتشقلب زمان (وأغرق فى الضحك) .. كنت ظريفا جدا أيها البهلول .

ثم عاد ينظر الى فى وقار ..

— الدكتور م . داود دكتوراه فى جراحة المخ من برلين .. رجل علم محترم يقف له كل من يراه .. أين هو من بهلول الخليفة . . تاريخ كل منا تاريخ . كل منا حكاية طولها مليون سنة .. ألا تريد أن تعيش مليون سنة .. أنا عندى أكسير من يأخذه يعيش مليون سنة .. يعيش الماضى الذى مات .. ويقلب صفحات كتاب الدنيا كله .

ان المخ شىء عجيب ..

انت تخصصت فى جراحة المخ .. ولكن مثل كل المتخصصين لا تفهم شـيئا .. ان المخ عالم كبير .. أرشيف .. فهرس .. مرجع شامل كل يوم من أيام التاريخ مكتوب به ورقة فى مخك من الأزل . من منشأ الحياة .. كل يوم مدون . ورقة بورقة .

هل تريد أن تقلب أوراقك ؟

هل تريد أن تعيش تاريخ كل الأزمان ..

وسكت لحظة وأمسك برأسه بين كفيه وظهر على عينيه الألم..

وغامت نظراته .. ثم عاوده اللهاث .. ورأيت حدقتيه تتسعان . وخرجت الكلمات من فمه كالصفير الخافت المتقطع :

– لا أمل .. أنا سوف أموت .. أ ... موت .. كل شيء يغيم أمامى . الدنيا تصبح ظلاما .. النور .. النور .. دكتور داود .. الأكسير .. الأشعة .. الـ ..

وأمسك برقبته وهو يتلوى كأنما هناك أيد تخنقه وهو يصرخ فى صوت كالفحيح ..

– أنا لم أقتل أحد .. أقول لكم أنى لم أقتل أحدا .. أنا وهبت كل واحد مليون سنة .. مليون سنة .. القتيل الحقيقى هو أنا .. أنا الذى أموت الآن ولا أجد لحظة .. لحظة واحدة أعيشها . . دكتور داود الأكسير ..

وتلقيته على صدرى وانطلق لسانى الذى عقده الفزع .

– أين هو الاكسير ؟ ..

– الاكســ ...

– ما هو تركيبه ..

وسكت وأغمض عينيه بينما رحت أهزه فى عنف وأصرخ :

– تركيبه .. أرجوك .

وخرجت كلماته مفككة :

– تركيـ .. ب .. ب .. ب ..

وألقى برأسه الى الوراء ولفظ نفسه الأخير .. مات ..

لم أصدق ..

لمست عينه .. لم تطرف ..

كانت حدقتاه تلمعان كالزجاج . وتحملقان فى الفراغ ..

انتهت حياة دميان ..

مات آخر أمل من آمالى على شفتيه .

ونظرت حولى فى فزع ..

وأدركت الحقيقة الرهيبة كلها دفعة واحدة .

انى الوارث الوحيد للسر ..

لا أحد يعلم حياة دميان وموته سواى ..

كيف أتصرف ؟ ..

انى أسكن مع جثة فى فيلا على الطريق الزراعى ..

ورأيت نفسى أفكر كطبيب ..

ان الحصول على كلمة واحدة من دميان أصبح مستحيلا ..

ولــكن ..

ولكننى أملك جسده ..

أملك مخه ..

أستطيع أن أعرف بضربة مشرط ماذا حدث بداخل هذا المخ الذى أصبح يرى الماضى ويخترق حجب الزمن ..

ورسالتى كرجل علم تقتضى منى أن أفعل شيئا ..

وشعرت بالوقت يمضى وكأنه قطار مسرع تدهمنى عجلاته .

كان لا بد من العمل بسرعة قبل أن تتيبس الأنسجة .

ونظرت الى حقيبة آلات التشريح ... والى المشرط الذى كان يعبث فى عنكبوت منذ ساعة مضت ..

وغلب فضولى العلمى على خوفى .. فتناولت المشرط وبدأت أعمل بسرعة ..

واحتجت الى منشار لقطع العظم ..

وكان فى الحقيبة أكثر من منشار واحد ..

لا شك أن دميان كان يقوم بهذه العملية كثيرا بدليل وجود هذه المناشير ..

وبعد ثلاثين دقيقة من العمل المحموم .. استطعت أن أصل الى المخ ..

كان يبدو عليه الاحتقان .. وكانت الشعيرات الدموية متمددة بشكل ملحوظ .

وكان أول شىء لاحظته حينما قطعت المخ طوليا .. ان الجسم الصنوبرى ثلاثة أضعاف حجمه الطبيعى ..

وانتزعته فى حذر ووضعته فى محلول ملحى ..

كان السر كله كامن فى هذه الترمسة الصغيرة ..

وشعرت أن الجزء الباقى من العمل هو أخطر الأجزاء .. أن

قطع مقاطع مكروسكوبية فى هذه الترمسة .. وأفحصها فحصا ميكروسكوبيا لرؤية التحولات التى حدثت فى خلاياها ..

وكنت أتوقع أن أجد المعدات اللازمة ، فهذه عملية كان يقوم بها دميان بانتظام كل مرة .

وكان توقعى فى محله فقد وجدت فى ركن جهازا حديثا لقطع المقاطع المطلوبة وكأنما كان دميان يعلم احتياجاتى كلها فوضع كل شىء فى متناول يدى .. وبدأت أقطع عددا من المقاطع وأصبغها تمهيدا لدراستها تحت الميكروسكوب .

وحينما وضعت عينى على عدسة الميكروسكوب لأرى أول مقطع .. كان المنظر الذى رأيته منظرا مألوفا .

كانت الخلايا أشبه بالخلايا السرطانية ..

لا شك أن هذا المقطع هو نفس المقطع الذى رأيته فى شقة ١٥ شارع ابن الوليد تحت الميكروسكوب .. وساعتها خيل الى أنه نسيج جنينى ..

لم يكن نسيجا جنينيا .. لقد كان شريحة من الجسم الصنوبرى

هل هو سرطان .

لا ليس سرطانا .. بدليل عدم وجود انقسامات فى الخلايا ..

وانما وجه الشبه بينه وبين السرطان هو حيوية الخلايا وسرعة نموها وشدة قابليتها للصبغة .

ان خلايا الجسم الصنوبرى فى حالة انتفاضه نشاط .. وهذا كل ما فى الأمر .

ولا شك أن دميان استطاع أن يصل الى هذه النتيجة باستخدام الأكسير .. الذى أخذه حقنا فى الدم .. وباستخدام التنبيه المتكرر بالاشعاع .

كانت القصة قد بدأت تتضح .

ولكن كيف كان دميان يستحضر أكسيره من خلاصات البراعم النامية وغدد العنكبوت والحيوانات المنوية .

ما هى المعالجة الكيمائية بالضبط ..

النوتة تحكى التفاصيل بالشفرة .

ولا أحد يعلم مفتاح هذه الشفرة الا صاحبها الذى سكت الى الأبد .

ولكن الأكسير موجود .

وربما أمكن تحليله والوصول الى مكوناته .

وهناك جهاز الاشعاع .. الذى يمكن الوصول هندسيا الى معرفة كنهه .

هناك أكثر من أمل .

ولكن كان هناك شيء آخر أهم من هذه الآمال بالنسبة لى .

اختبار أهم من جميع هذه الاختبارات الكيمائية .. هو الاختبار الحى ..

ان أجرب ..

أن أجرب بنفسى هذه اللعبة .

أن أعيش مليوز سنة ..

أن أرى الماضى ..

كانت الفكرة تفزعنى .. ولكنها تخدر ارادتى وتتسلط على حواسى ..

نسيت كل شىء .. ولم أذكر الا شيئا واحدا .

أن أتناول الأكسير .. وأتلقى ذلك الاشعاع السحرى لأرى مالم تره عين وأسمع مالم تسمع أذن .

آكل من الشجرة المحرمة .. شجرة المعرفة .. وأدخل الجنة الموعودة ..

كانت الفكرة تخدرنى تماما .. تسلبنى عقلى .

كنت كطفل أمام قطعة حلوى باهرة يعلم أن دماره فيها ولكن ريقه يتحلب ليتذوقها .

وبفطرة لا تقاوم مثل فطرة آدم التى شدته الى التفاحة .. وجدت نفسى مشدودا الى مصيرى .

كانت كل حوافز حياتى تلقى بى الى ذلك السر ..

نعم .. كنت أريد أن أعيش المليون عام ، وأولد المليون ولادة .. وأذوق هذا الذى هو أشبه بالخلود ..

ووجدت يدى تمتد الى الحقنة تملؤها بالســائل الأزرق .. وبدفعة خفيفة من الابرة فى الوريد .. كان السائل ينساب فى دمى ببطء ومع حركة السائل فى الدم كنت أحس بشيء كالنضارة .. انتعاش غامض . مثل ارتجاف الأوراق الخضراء فى ندى الربيع .. يقظة . انتفاضة .. نشوة .. عنفوان .. تفتح مثل تفتح البراعم .

احساس غريب طازج ..

صبوة نحو كل شيء ..

كان كل شيء يبدو فى عينى متألقا جذابا .

هذا رحيق مستقطر من ينابيع السعادة .

ودقت ساعة الحائط الكبيرة .

وتذكرت العشر دقائق ..

كانت أمامى عشر دقائق لأكون جاهزا لأتلقى الاشعاع .

وأفادتنى معلوماتى الطبية وخبراتى فى المقاييس المترية للدماغ فى ضبط براجل الجهاز وروافعه الدقيقة وفى توجيه أنابيب الاشعاع الثلاثة الى أماكنها المضبوطة من رأسى بحيث تلتقى حزم الاشعاع عند مركز المخ .. فى الجسم الصنوبرى .

وأدرت مفاتيح عدادات الفولت والأمبير ..

لم يبق الا أن أضغط على المفتاح الأحمر فتبدأ النهاية .

وبشوق لا حد له .. وكأنى ألمس شفتى أجمل امرأة .. ضغطت على المفتاح ..

وتوهجت أنابيب أشعة المهبط بوهج خافت وارتفع أزيز مكتوم

— ٩ —

كان ما حدث شيئا لا يمكن وصفه .

كل قاموس الكلمات لا يسعفنى .

حينما أقول ان الفزع استولى على .. فانه ليس الفزع المألوف الذى نعرفه .. ولكنه فزع آخر لا اسم له .

فزع أقرب الى تبخر الذهن وتطاير العقل .. وكأنما قد فتح ستار فاذا عالم مخيف .. تيه تضل فيه الحواس .

سماء حمراء غبراء تلف كل شىء فى غبرتها .. أرض تختلط فى ملامحها ظلال أبحر عديدة وجبال ووديان .. مدن عتيقة وشوارع مبلطة وحوار مسقوفة .. وناس فى ملابس تاريخية .. وأصوات مختلطة .

وأصابنى هذا الانتقال الفجائى بالتشنج فانعقد لسانى وفقدت النطق .. وفقدت الحركة .. وتحولت الى عينين محملقتين مثـل حفرتين من جبس تنظران فى فراغ .

ولكن بمضى الوقت بدأ يسيطر على شعور آخر مختلف تماما عن الشعور الأول .

بدأت أشعر أن هذا العالم الغريب الذى أزيح عنه الستار ليس غريبا تماما..وانما هو عالم مألوف الى حد ما..أستطيع أن أتعرف فيه على ملامحه .. عالم أصيل حقيقى .. أكثر واقعية من عالمنا المألوف.

بل انى لأكاد أسمى الأشياء أمامى بمسـميـاتها .. وأكاد استوقف الناس الذين يهرولون فى مواكب لا حصر لها وأناديهم بأسمائهم .

هذا عالم أعرفه .. وناس أعرفهم .

هذا عالم عشته .

بماذا أصفه لكم .

انه أشبه بعالم متداخل .. تتداخل فيه الصور وكأنها صور شفافة مرسومة فوق زجاج وموضوعة فوق بعضها البعض .. تشف كل صورة عن الصورة التى تحتها .

كل شخص يشف عن شخص آخر بداخله .. وهذا الآخر يشف عن شخص ثالث ورابع وخامس الى مالا نهاية .

وبمثل ما تتداخل الصور تتداخل الأصوات والألوان .. وتتداخل الحوادث .. وتتداخل الفترات الزمنية .. وتتداخل الأحقاب والعصور فى عوالم مزدحمة كأنها الحشر .. ورغم ذلك فهى لا تختلط على العقل وانما تبدو مميزة متباينة .. وأعجب من هذا أنها تبدو مفهومة .. وطبيعية .

وكل فرد فى هذا العالم لا يبدو فردا واحدا .. وانما يبدو ألوفا مؤلفة من الأفراد والشخوص مثل الصور المكررة فى شريطسينمائى منظور اليه بالعين المجردة .

ان ما تراه العين فى هذا العالم ليس الفرد ولكن تاريخه .. انها ترى حجمه وزمنه .

والزمن فى هذا العالم ليس يدرك بالبداهة .. وانما هو بعد حقيقى تراه العين .

وهو ليس عالما خرافيا .. بل هو عالم حقيقى .

عالم يعرفنى كما أعرفه .

هذا واحد فى الزحام اللانهائى ينظر الى ويبتسم .. ويناديني باسمى « ايزاك » .. نعم هذا هو اسمى « ايزاك » .. أنا أعلم جيدا أن اسمى « ايزاك » .

وها نحن نذهب سويا الى حانة تحت ربع قديم لنسكر . . ألحانه أعرفها والمكان أعرفه والساقى أعرفه .. والكل يبتسمون فى وجهى ابتسامة الألفة والعشرة الطويلة .

وصديقى « دكران » يحدثنى عن الجارية التى اشتراها من سوق النخاسة .. ويحدثنى عن رائحة عرقها .. وعن فخذها الممتلىء .. وأنا أضحك .. وأشرب .. ويجىء الشـواء .. والتوابل .. وصديقى يقول .. ذق من هذه التوابل .. انها من توابل البصرة اللذيذة .

وعلى باب الحانة نسمع صوت ترس وزرد وصليل أسلحة .. ثم صرخة .. وأنين مختنق .. وخطوات مسرعة .

ونقوم ونحن نترنح .

وعلى باب الحانة نجد فارسا مذبوحا يلفظ آخر أنفاسه .

وأميل عليه وأضع يدى على قلبه .

وأرفع يدى الملوثة بالدم لأجد على رأسى جنديا مدججـا بالسلاح يقول لى .. ايزاك اللعين .. يا قاتل .. يداك تقطران دما .

وأتلفت حولى .

لقد فر صديقى بجلده .

— ايزاك اللعين .. يا تاجر السم .. يالعنة أهل بغداد .

— أنا لست تاجر سم يا صديقى سامحك الله .. أنا تاجر عقاقير



— أهي عقاقير أم أحجبة أم رقى مسحورة يا كافر يانجس .

— مالى أنا ومال السحر .. أتركنى يرحمك الله .. أنا رجل فارسي غريب ولست من هذه البلاد .

— الليلة تحل ضيفا على سجن القداحة يا أيها الفارسى الغريب .وغدا تقف أمام القاضى العادل أبو قطافة وبعد غد تذهب باذن الله الى القرافة .

— أنا برىء والله العظيم .

— بأى عظيم تقسم أيها الكافر .

— أنا برىء يا ناس ..

— يا فارسي يانجس .

— أنا برىء يا خلق .

وأصرخ فيه وأقبل يديه وقدميه وأنا أرتجف رعبا .. ولا فائدة .

وفى سجن القداحة .. أقضى الليل فى الظلام والرطوبة والبرد الذى يتخلل العظام . ومن حولى دبيب هوام .. وحفيف أشياء تزحف .. وأصوات سعال .. وحشرجة ناس تموت .

وفى الصباح أقف أمام القاضى أبو قطافة .. ويشهد الجندى شهادة عيان بأنه رآنى أقتل .. ورأى يدى مخضبتين دما .. ويحكم القاضى على بالاعدام .. ويضرب السياف عنقى أمام بوابة «أمية» .

وأموت ..

ولكنى لا أنتهى ..

وفى هذا العالم الغريب لا أحد ينتهى .. الكل يولد من جديد ويعيش حياته مرات لا نهائية ..

فأنا مرة أخرى فى دير البلح فى صحراء سيناء .. الأسقف « حتين » الأب الطيب الذى يفيض قلبه محبة .. حياتى صلاة وتعبد .. وطعامى من التمر الجاف والشعير .. ونهارى الطويل أقضيه فى التأمل وسبحات الفكر .. والناس يسعون الى من أطراف الأرض لأمنحهم البركة ..

يالها من حياة كلها سماح ..

لا .. لم أكن أحلم ..

وحينما ضرب السياف عنقى أمام بوابة « أمية » لم يكن ما شعرت به كابوسا لقد كنت أعيش وأموت .. وكانت حياتى حقيقة . . وكانت آلامى واقعا . .

وفى تلك اللحظات حينما كنت أتذكر نفسى .. أنا الدكتور داود .. كانت هذه الذكرى الشاحبة هى التى تبدو لى كالحلم ..

يالها من رؤى .

عشرات المرات أكتشف نفسى فى عشرات الأماكن بعشرات الأسماء .. وفى كل مرة أخرج الى الدنيا بشخصية مختلفة وكأنى انسان جديد كل الجدة ..

الزمن جميعه أصبح ملكى وكأنه بوبينة فيلم أتفرج فيه على جميع اللقطات التى أخذت لى فى جميع الأوضاع والأسماء .

مئات السنين عشتها .. وعانيتها يوما يوما .. كل يوم له نضارته وحلاوته ومرارته .. وكأنه أول وآخر يوم فى العمر .

قابلت ماتيلدا الجميلة ذات العيون الخضر فى سوق قرطبة ذات مساء وكانت تحمل سلة بها تين .

وتحت ضوء قمر أبريل الدافىء الحنون سرنا متخاصرين ..

تحمل الأنسام وشوشاتنا ..

ما أحلى القبلة المختلسة ..

ولمسة الأنامل المرتجفة حينما تعثر على بعضها ..

وذلك الخدر والدوار ..

وملمس الشعر ذى الجدائل ..

ورائحة الطيب ..

وهمس الحنان ..

ماذا تفعل ظبة السيف حينما تطعن قلبا أحب وعشق .. لا شىء .. لقد أحب وعشق .. لقد عاش ملء وجوده .. الموت لن يسلبه شيئا ..

اننا ننفق من ثروة أبدية لا تنفذ ..

ان عمرنا ملايين السنين ..

عمرنا من عمر النجوم ..

نحن لا نفقد شيئا .. ليس هناك ما يدعو العجلة .. ولا للحسرة ولا للندم .. فالعمر طويل . طويل أبدى . والفرص لا نهائية .

كنت وأنا طفل أحلم بأنى أقود الجيوش وأفتح الأمصار والأقطار .. وكان قلبى يخفق طربا وأنا أقرأ عن جينكيز خان وهانيبال والاسكندر .. وتعذبنى الأمانى والآمال ..

لو انى فتحت كتاب حياتى ..

لو انى عدت الى الوراء .. ورأيت ما أرى الآن ..

الحصار على أسوار عكا .. وغبار معركة « الحصن » . . وبريق السلاح الأبيض .. وأنا « ابن خزاعة » . أحارب وظهرى الى الحائط وليس فى جسدى مكان لم يرشقه خنجر .. وبوابة الحصن تنهار تحت طرقات المنجنيق .. وجيشنا المظفر يتدفق داخلا كالطوفان .. أكاد أتحسس مكان كل جرح فى صدرى وكتفى وساقى . .

والألم المبرح ينفذ فى لحمى كالنار .. تزفه الطبول والابواق .. وهتاف الجنود ..

يا لها من دنيا مليئة ..



كنت أفكر .. وأتأمل فى شرود .. حينما خيل الى أن هذه الرؤى تبتعد وتغرق فى ضباب كثيف .. وكأنما قد انسدلت ستارة على المنظر كله فراحت تحجبه رويدا رويدا .

وشيئا فشيئا بدأت أفطن الى ملامح جديدة هى ملامح معمل دميان .. والكرسى الذى أجلس عليه .. وأنابيب أشعة المهبط .. وجهاز الأشعة بروافعه وعداداته.

لقد توقف الجهاز من تلقاء نفسه .. وأفقت تماما .

كان الجهاز مضبوطا ضبطا أوتوماتيكيا على مدة اشتغال محددة .

ونظرت الى ساعة الحائط .

واكتشفت أن نصف ساعة قد مضت منذ بدأت الجلوس أمام الجهاز ..

معنى هذا انى قد عشت مئات السنين فى خلال هذه النصف

ساعة .. فى خلال ثلاثين دقيقــة عشت كل هذه الأحداث التى تملأ مجلدات ..

معنى هذا انى كنت فى عالم آخر له زمنه المختلف ومعــاييره المختلفة .. عالم .. الدقيقة منه تحفل بأحداث سنين ..

انه اكتشاف رائع .

اننا سجناء دقائق مفلسة يمكن أن نعيشها سنين خصبة غنية اذا عرفنا كيف نخرج من أسرها لنحلق فى أجواء ذلك العالم الآخر .

كيف نستطيع أن نحقق هذا .. ؟؟ !

وكيف نستطيع البقاء فى ذلك العالم الآخر الى الأبد .. ؟؟ !

سؤال لا شك انه كان يشغل بال دميان فحاول أن يجيب عليه .. واستغرق فى هذه البحوث الكيمائية محاولا أن يصل الى سر هذه الآلة العجيبة التى اسمها المخ .

ان المخ أرشيف . فهرس . كما قال دميان .

سجل فيه محضر كامل بما حدث فى هذه الدنيا منذ بدء الخليقة مدونا فى الخلايا ومكتوبا على لفائف الأعصاب .

كيف نبعث هذا السجل الحافل . كما نستعيد ذكرياتنا اليومية فى عقولنا كل لحظة .

هــذه هى المعجزة التى حاول أن يحققهــا دميان باستخدام أكسيره العجيب .

— ١٠ —

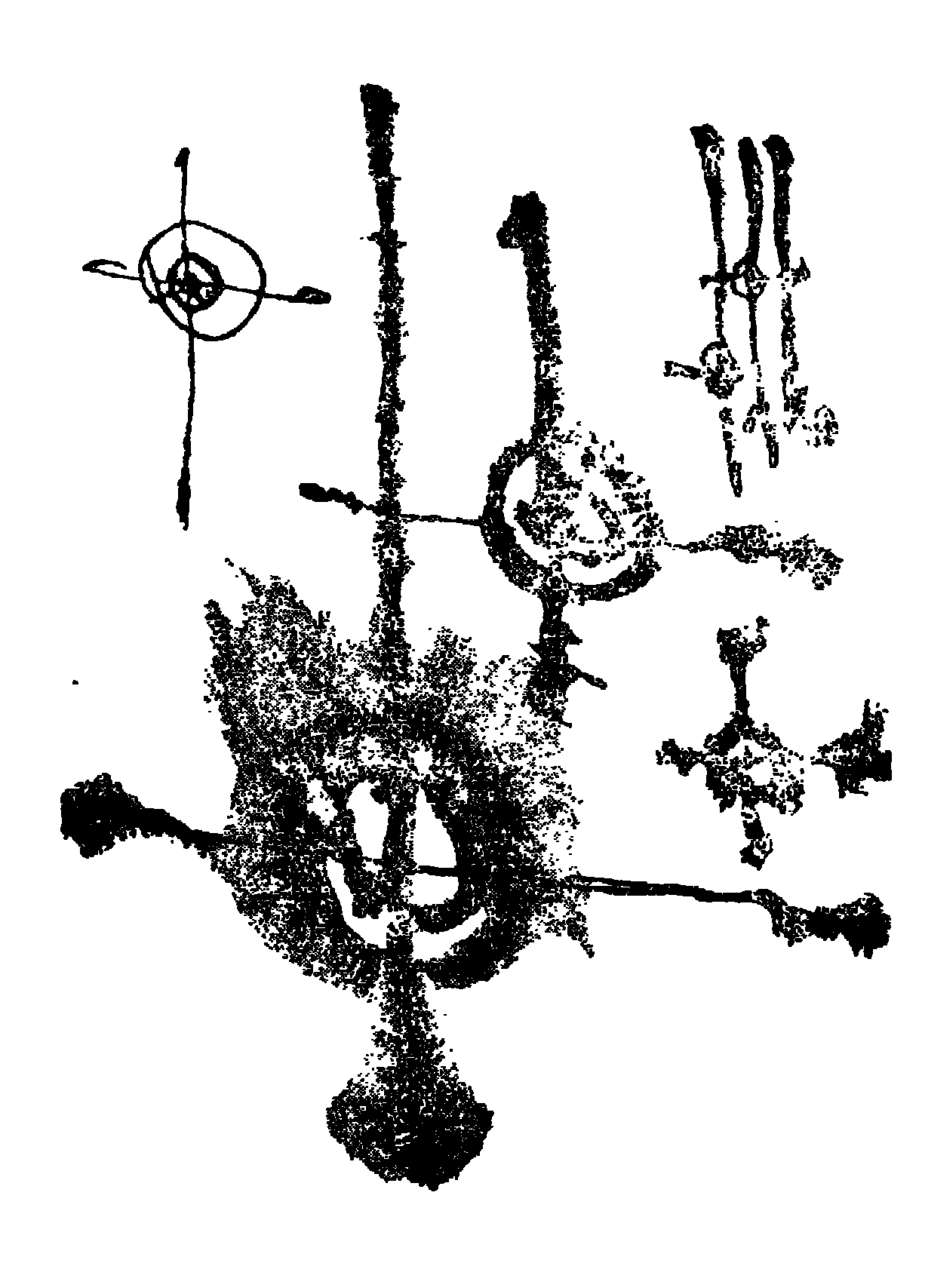
كانت أمامى مهمة عسيرة ..

أن أعرف تركيب الأكسير ..

وفكرت أن أبدأ فى تحليله منهجيا .. ولكن العقبة كانت فى كمية الأكسير الموجودة .. كانت كلها لا تزيد على عشرين سنتيمترا ..

معنى هذا أن أكتفى بقطرات لأجرى عليها اختبــاراتى .. وهذا عسير .

وكانت هناك رغبة أخرى تنازعنى .. هى رغبة حادة ملحة فى الاستمتاع بهذه الكمية لأعيش تلك الحياة المسحورة وأعود الى ضباب الماضى ولذاته .



كانت كل قطرة تحمل فى طياتها وعدا مغريا بحياة طويلة عريضة حافلة بالأحداث .

وكانت هذه الرغبة تتحول عندى الى شهوة آكالة مسيطرة متسلطة أقوى من شهوة المدمن الى الأفيون ..

وكان الضعف والتخاذل يستولى على كلما مددت يدى الى أنبوبة السائل .. وكنت أشعر أنها أثمن وأغلى وأقدس من أن تبدد فى أى غرض .. ولو كان هذا الغرض هو اكتشاف حقيقة .. فأية حقيقة أثمن من الحياة ؟!

ان هذا السائل الثمين هو وعد بالحياة لكل من يتعاطاه .. وأية حياة .. مئات السنين الحافلة بالمتع ..

وأمام هذا الاغراء الأكال تحولت الى انسان سليب الارادة .. ممدود الذراعين فى تسول خاضع خانع يتشهى قطرة .

فى دمى وفى نخاع عظامى نداء ذليل ..

وفى قلبى فزع يراودنى ..

ماذا لو نفد السائل ؟!

كنت أشعر بسعار ..

سعار أقوى ألف مرة من سعار الجنس فى جسد فحل مراهق .

كرابيج تلسعنى ..

وتذكرت دميأن .. وهو يتجول فى المقابر مثــل الخفافيش مصاصة الدم .. جريا وراء هذه القطرات الملعونة ..

انه الجنون ..

لقد أدركت سر نظرته المحنونة وهو يقف أمامى فى آخر مرة .. ينظر الى السائل فى يدى .

لقد كادت عيناه تخرجان من محجريهما .

نعم .. لم يكن هناك سبيل الى مقاومة هذه الشهوة المدمرة .

ورأيت نفسى أتحرك فى خطوات مخدورة الى أنبوبة السائل .. وأملأ الحقنة وأحقن بها ذراعى وأنا أرتجف بنشوة غلابة .

وبعد الدقائق العشرة كنت أجلس فى مكانى من الجهاز . . وأضغط على المفتاح .. لأدخل مرة أخرى فى تلك الغيبوبة المسحورة.

وكانت كرابيج حقيقية هذه المرة تلك التى نزلت على ظهرى العارى .. وأنا أدير أنا وعشرات من العبيد رحى معصرة زيت ..

متى .. وكيف .. ولم .. جاءوا بى الى ذلك المكان .

وفى أى عصر من عصور التاريخ الغابرة .

ومن هو السيد الذى يتخطر بيننا بحلة موشاة بالقصب ويدفعنى فى ظهرى صارخا .. اشتغل يا كلب ..

يا الهى .. ولكننى لست انسانا ..

أنا ثور وعلى عينى عصابة .

وأنا أخور كالثيران .

وأنا أمشى على أربعة أرجل .

وأنا لى حوافر .

وأنا آكل التبن .

وجلدى سميك . واحساساتى بليده . ولا أشعر بفارق يذكر بين لذع كرباج وضرب عصا .

واهتماماتى فى الدنيا قليلة . أن آكل وأشرب وأواقع الأنثى . أى أنثى . وذاكرتى لا يعلق بها شىء . فأنا لا أذكر شكل أولادى وأنا لا أحزن ولا أفرح . وانما أجوع وأشبع على أكثر تقدير .

وبعد الشبع أنام .

وهو دائما نوم عميق .

لا أحد منكم جرب نوم الثور .

لو جربتموه لتمنيتم أن تكونوا ثيرانا .

انه لشىء فريد . ذلك النوم الذى يتحول فيه الواحد منا الى قالب طوب .

ان قلوبنا تقشعر حينما تتصور ذبح ثور . ولكنه ليس أمرا مؤلما بالقدر الذى نصوره .. ان ألم الضرس أشد منه .

ان ما أحسست به ذات يوم حول عنقى حينما ذبحونى .. كان ألما بليدا لم يدم الا فترة قصيرة .. ثم انتهى كل شىء .

لا لم ينته .. فلا شيء ينتهى فى ذلك العالم .. أبدا ..

ها أنذا مرة أخرى أعيش .

لست ثورا هذه المرة .

ولا أعرف بالضبط من أنا .

كل ما أعرفه انى فى غابة .. وان الغابة مليئة بالأشجار .. وان الأشجار هائلة الحجم .. وأن الأرض تغطيها المستنقعات .

مستنقعات .. مستنقعات فى كل مكان .

ولا صوت حولى سوى صوت الرياح .

والأمطار تسقط بغزارة .. والجو يقطر بالرطوبة .

ومياه المستنقعات دافئة .. ويخرج منها من وقت لآخر غازات فسفورية .. وأوراق الأشجار غريبة الشكل أشبه بأوراق السرخس المنقرضة .. ولا توجد مخلوقات .

ولا شيء يذكر يحدث حولى .

والزمن يمضى بطيئا بطيئا .. وكأنه لا يوجد شيء اسمه زمن .

وعندى احساس رهيب بالخواء .

يا الهى .. انى شجرة .

لعلها مئات السنين تلك التى كانت تمضى لأن ستار الضباب عاد فانسدل على المنظر كله مؤذنا بانتهاء التجربة .

وبدأت أفيق من جديد على مكانى من الكرسى فى معمل دميان. وقد انقضت النصف ساعة .

كانت تجربة عجيبة .

***

تركت الجهاز ..

وجلست أكتب مذكراتى وأنا ألهث خشية نسيان ما رأيت ..

كنت أريد أن أسجل كل دقيقة عشتها فى ذلك العالم المسحور .

ولاحظت بجنب عينى وأنا أكتب أن السائل لم يبق منه الا نصفه .

ولاحظت ملاحظة أخرى أفزعتنى .. ان النصف الباقى من السائل قد تغير لونه من الأزرق الى الأخضر .

ليس اللون فقط .. بل الرائحة أيضا .

لم تعد له رائحة الثوم .

لقد أصبح شيئا آخر .

لقد فات الوقت .. ولم يعد من الممكن معرفة تركيبه

لقد تحلل الى مركب جديد .

ولا شك أن خواصه قد تغيرت أيضا .

وكان خاطرا مفزعا أن أتصور أنه لم يعد فعالا .. وأنه لم يعد من الممكن أن يؤثر فى المخ كما كان يؤثر فى الماضى .. وأن العودة

الى ذلك العالم المسحور قد غدت مستحيلة .

وما بقى لى من عمر سوف أقضيه سجين هذه الدنيا المفلسة .

لم يعد هناك مخرج .

لن أجد مهربا من هذا العالم الغليظ .

لن أستطيع التحليق خارج الزمان والمكان .

كان تصديق هذا الخاطر شيئا فوق احتمالى .

وأسرعت أملأ الحقنة وأحقنها فى ذراعى .

كنت أريد أطمئن .

* * *

كانت هذه آخر ورقة كتبها الدكتور م . داود فى مذكراته .. فقد عثر عليه بعد ذلك بساعات ميتا فى معمل دميان .

وكان المعمل يحترق اثر شرارة كهربائية مجهولة المصدر ، وكل الأجهزة قد اشتعلت فيها النيران .. لم تبق منها الا هياكل فحمية .

وقال الطبيب الشرعى الذى فحص البقايا المحترقة فى تقريره عن مذكرات الدكتور م . داود .. انها مذكرات عجيبة .

وحينما سأله وكيل النيابة :

— ماذا تعنى بقولك انها مذكرات عجيبة ..

ظهرت علامات الحيرة على وجه الطبيب وأردف قائلا :

— كل ماهو مكتوب فى هذه المذكرات عن الجسم الصنوبرى .. وعن الحيوية فى البراعم .. وفى خلايا الجنين .. وفى غدد العنكبوت والاكتومسين . يمكن أن يكون صحيحا من الناحية العلمية ولكن.

— ولكن ماذا ؟

— ولكن الأمر كله يبدو لا معقولا . هل يمكن أن تتصور أنك تعيش حياة أبدية ؟ .

وبدا الارتباك على وجه وكيل النيابة وأجاب فى صوت خافت

— نعم انه شىء غير معقول . انه الجنون بعينه .
ثم أردف وقد خفت صوته أكثر .

— ولكن . من يدرى . وهل نعرف نحن كل شىء فى هذه الدنيا .. ان كل ما نعيشه بضع سنوات فى زمن لا أول له ولا آخر.

ماذا نكون نحن فى عمر الدنيا حتى ندعى الاحاطة بكل شىء .
هذه دنيا كلها طلاسم .

كلها طلاسم .

